العدد الثاني

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

السنة الثانية

الاشتراكات

قرش	
١٠٠	عن سنة كاملة
٦٠	عن نصف سنة
	للطلاب وجنود الجيش
٨٠	عن سنة كاملة
٤٠	عن نصف سنة
٢٥	عن ثلاثة أعداد

يضاف اليها أجرة
البريد خارج القطر

ربيع الثاني سنة ١٣٧٢ — ديسمبر سنة ١٩٥٢



هذا القرآن

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي
المرشد العام للاخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) .

إن وعد الله حق وصدق ، وقد أكد تبارك وتعالى لينصرنّ من ينصره ، وأشار إلى أن قوته وعزته كفيلة بهذا النصر ، ثم بين كيف يكون نصر الناس له سبحانه وتعالى ؛ فإن نصر الله لايعطى مجاناً ، ولايكتسب بهين من القول أو الفعل ، بل إنه لايتأتى إلا بقائمة طويلة من الأعمال : يبذل المرء فيها طاقته ويخلص فيها النية له تعالى . فمن أبطأ عليه نصر الله تعالى أو تخلف فلا يقولن : إن الله وعدني ؛ بل يجب عليه أن يفتش في نفسه ليتبين ما إذا كان قد نصر الله حقاً أم لم ينصره .

العدد الثاني | السنة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة
تليفون : ٢٤٤٥٥

الاشتراكات
ص	
١٠٠	عن سنة كاملة
٦٠	عن نصف سنة
	للطلاب وجنود الجيش
٨٠	عن سنة كاملة
٤٠	عن نصف سنة
٢٥	عن ثلاثة أعداد

يضاف إليها أجرة البريد خارج القطر

ربيع الثاني سنة ١٣٧٢ — ديسمبر سنة ١٩٥٢

هذا القرآن

لفضيلة الأستاذ حسن الهضيبي

المرشد العام للإخوان المسلمين

« إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ »

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) .

إن وعد الله حق وصدق ، وقد أكد تبارك وتعالى لينصرنّ من ينصره ، وأشار إلى أن قوته وعزته كفيلة بهذا النصر ، ثم بين كيف يكون نصر الناس له سبحانه وتعالى ؛ فإن نصر الله لا يعطى مجاناً ، ولا يكتسب بهين من القول أو الفعل ، بل إنه لا يتأتى إلا بقائمة طويلة من الأعمال : يبذل المرء فيها طاقته ويخلص فيها النية له تعالى . فمن أبطأ عليه نصر الله تعالى أو تخلف فلا يقولن : إن الله وعدني ؛ بل يجب عليه أن يفتش في نفسه ليتبين ما إذا كان قد نصر الله حقاً أم لم ينصره .

إن الله قد وضع شروطاً لنصره وجعل أولها : إقامة الصلاة ؛ وهى العبادة الروحية التى تصل المرء بربه وتقربه منه . أما الصلاة التى يؤديها الإنسان قائما قاعداً راكعاً ساجداً دون أن ترقق قلبه ، ويشعر فيها بأنه اقترب من الله تعالى ؛ فهى صلاة آلية لاخير فيها ، ولا تعد مما يتحقق به النصر . . وكأنى أشعر وأنا أكتب هذا الكلام أن القارىء سوف يحسب أن كاتبه قد بلغ الذروة من الحرص على الصلاة المقصودة فأقول له : إنى أحاول أن أفعل فأنجح فى قليل من الأحيان ، وأسأل الله المغفرة عن التقصير فى كثير منها . ولكن لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ؛ فعلينا أن نتجه إلى الله العلى الكبير ، ونسأله التوفيق ، وربما وصلنا يوما ما . . .

ثم إيتاء الزكاة : وإذا كانت الصلاة يعتريها ما يخرجها عن أن تكون مؤثرة فى النفس مقربة من الله ، فإن الزكاة كذلك ثقيلة على الأنفس التى لم تأنس بالقرب منه تعالى ، فلا يؤتيها كثير من الناس بل أكثر الناس ؛ ومن يؤتيها فإنه ربما لا يخلص النية فى ذلك فلا تكون طيبة بها نفسه ، أو يتيمم الخبيث من ماله ينفق منه .

ولا تحسبن الحكومات أنها بمنجاة من عقاب الله ، ومن تفويت النصر الذى وعد الله به من ينصرونه إذا هى عطلت هذه الشريعة ، وحرمت الفقراء من حقهم فى أموال الأغنياء ، وجعلت تعالج مشكلة الفقر بأساليب تستعيرها ممن فشا الفقر بين بعض طوائفهم ، فلم يجدوا له علاجا على رغم الجهود التى يبذلونها ، والله تعالى قد سن العلاج البسيط الشافى لهذه المشكلة ؛ وحسبنا الله .

أما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهما دعامتان لإصلاح الأفراد والمجتمع ، وقد أقام الله بهما المدرسة الأزلية التى تعلم الناس الفضيلة وتجنبهم الرذيلة ، تعلمهم البر والتقوى وتجنبهم الإثم والعدوان . وقد مسخنا أمر الله وأحللنا الحرام وحرمنا الحلال ؛ فقد قال الله تعالى : « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » وقال : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ، — الظالمون ، — الكافرون — » وقال : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » وقال : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » ، فغيرنا وبدلنا وحكمنا بغير ما أنزل الله ، وقبلنا فتنة الناس عن بعض ما أنزل الله ؛ بل عنه كله .

فأصبح الربا حلالا يأكله الناس بنص القانون وهو حرام بنص الكتاب ، وكذلك أصبح الميسر وشرب الخمر ، ومنعنا الزكاة ولم يجبها ولى الأمر ، وأبحنا زنا من لم

تكن متزوجة ، وعاقبنا على زنا المتزوجة بعقوبة تافهة ، وقبلنا عليها من الأدلة مالم يأذن به الله تعالى ، وأسقطنا القصاص والدية ، ومنعنا عفو المجنى عليه عن الجانى ، ولم نأخذ أنفسنا بالأخلاق القرآنية والفضائل الإلهية ، وغير ذلك كثير . . .

إن من ينظر إلى « حقائق الأمور » يجد أن النصر الذى وعد الله به عباده ليس قريباً منا ؛ ولايتم لنا نصر إلا اذا تحقق لنا من الإيمان بالله والقرب منه واتباع أوامره واجتناب نواهيه مايكون لنا شفيعا عنده إذ لاينفع إلا الصدق والإخلاص .

* * *

حدثنى بعضهم أن أخا فى الله هم بنسف ذخيرة للأعداء فى معركة القنال ، فذهب فوجد الأسلاك الشائكة كأنها سد منيع ، ووجد الحراس متيقظين ، وحاول أن يفعل فأطلقوا عليه النار ، وأنجاه الله من نيرانهم فعاد من حيث أتى ، ورجع إلى نفسه ، وقال: لابد أن يكون الذى وقع لى إنما وقع بذنب أتيته ولا أعلمه . وفى اليوم التالى اغتسل وصلى وتاب إلى الله ودعاه ، وذهب إلى حيث يعاود الكرة ، قال : فكأنما كنت كلما وضعت رجلى فى الأسلاك الشائكة صادفت فجوة لم أكن أتوقعها ، ووجدت الحراس قياما ينظرون كأنما سكرت أبصارهم فلم يعودوا يبصرون ، وكأنما مهدت لى الأرض فلم أجد صعوبة فى الوصول إلى الغاية التى قصدت اليها ، فأديت الأمانة ، ونسفت من الذخيرة ماعد خسارة فادحة للأعداء ، وأيقنت فى نفسى أن التوبة إلى الله هى التى وطأت لى الأمر كله وإن أنكر الكافرون .

* * *

اللهم حقق لنا وسائل النصر ، ولك عاقبة الأمور .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

«أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخيارهم خيارهم لنسائهم »

قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

قصص القرآن

آدم عليه السلام

أفق الروح

(٢)

عرض وتحليل للأستاذ البهى الخولى

الرزق بين المجال الروحى والحسى :

والله سبحانه يرزقنا فى عالمنا هذا الحسى وفق سنن من الأسباب والمسببات ، والمقدمات والنتائج ، ووفق سنن من طبيعة التربة والجو والماء .. الخ ؛ فالمعادن تتكون فى الأرض وفق قوانين معلومة وموازين دقيقة ، ولا تتكون كيفما اتفق ... وشجرة التفاح والبرتقال — مثلا — لا تنتج كل منهما ثمرها من تلقاء نفسها ، وإنما يتم ذلك وفق قانون محكم يستصفى لشجرة التفاح من عناصر الأرض الغذائية قيما مختلفة ، ونسبا مقدرة بميزان دقيق من كل عنصر ؛ ويستصفى لشجرة البرتقال قيما أخرى ونسبا تخالف النسب التى تخيرها للتفاح ؛ ولا تملك شجرة التفاح أو شجرة البرتقال أن تمتص من كل عنصر غير النسبة المقدرة لتكوين ثمرتها ؛ فتخرج شجرة التفاح تفاحاً بحساب وميزان ، وتخرج شجرة البرتقال برتقالا بحساب وميزان ؛ وإليه الإشارة بقوله سبحانه : « والأرضَ مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون[1] » .

هذا شأنه سبحانه حين يرزقنا من عالمنا هذا الحسى ، أما شأنه حين يرزقنا من الأفق الأعلى فغير هذا ... شأنه هنالك أن يخلق بلا سبب ، ويبدع بلا مقدمات ؛ إذ هو سبحانه سبب كل شىء ، وإرادته هى علة الخلق والأمر على نحو ما بين سبحانه ذلك بقوله : « إنما قولنا لشىء إذ أردناه أن نقول له كن فيكون[2] » ... فإذا كان لأحدنا سعى فى هذا الأفق الأعلى حصل له من الأرزاق مالا دخل لقانون الأسباب والمسببات ومنطق الأرقام والحساب فى تثميره وضبطه ؛ وإليه الإشارة بقوله سبحانه :

---

(١) الحجر — ١٩

(٢) النحل — ٤٠

« إن الله يرزق من يشاء بغير حساب[1] » ؛ ولقد كان الله سبحانه يرزق مريم ابنة عمران فاكهة الشتاء فى الصيف ، وفاكهة الصيف فى الشتاء ، فسألها زكريا عليه السلام « يامريم أنّى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ؛ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

هذا حين يرزقنا الله رزقاً حسياً من الجمال الحسى أو من الجمال الروحى ، أما حين يرزقنا سبحانه رزقاً روحياً ، فمصدره الأفق الروحى وحده ، ولادخل للمادة فى تثميره أو صنعه أو إنباته فهو من هبات الله عز شأنه ، التى لاتقاس بمقياس ، ولاتوزن بميزان ، ولاتحصى بعدد ، ولاتتألف من ذرة ، ولايسمو إليها وصف الواصف .

وهى أرزاق جليلة الشأن لو سُوِّموا العارفون بقدرها على لمحة منها بملء الأرض ذهباً لرفضوا أن يبيعوا الحياة بالموت ، والشرف بالهوان ، والهدى بالضلالة ، ووجه الله بالعرض الزهيد . !

هى الإيمان بالله ، والاهتداء بهديه ، والمعرفة بقدره ، والخشية لمقامه ، والحبُّ لجنابه ...

هى النصر على العدو ؛ والتأييد فى مواقف المعارضة ؛ والسكينة فى مواطن الروع ؛ والجنود التى لاتراها العيون ولايعلمها إلا الله !

هى الفرقان الذى نفرق به بين الحق والباطل ، والرشد الذى ندرك به حقائق الأشياء .

هى الصبر والثبات والثقة والطمأنينة والشجاعة والصدق والأمانة والكرم والسماحة والمواساة والإيثار ، وكل ماعرف من فضائل تنضر وجه الحياة .

هى ماشئت من حياة الأبد ، ونعيم غير محصور بأمد ، ومطالب جلّت عن الأسباب لكى تتحقق بدون سبب !

فلك إن شئت : علم بغير معلم

وأنس بغير أهل

وعز بغير عشيرة

وجاه بغير منصب

وقوة بغير جند

وسلطان بغير دولة

وغنى بغير مال

وزينة بغير رياش

وشبع بغير طعام

ورى بغير شراب

(١) آل عمران - ٣٧

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنى لست كهيئة أحدكم إنى أظل عند ربى يطعمنى ويسقينى ! » ذلك بعض ما يقال عميًا لنا فى السماء من رزق معنوى ، وهو الرزق الحق الذى لا يقارن به ولا يذكر إلى جانبه رزق آخر ، إذ النعمة به ، لا يقدَّر قدرُها ولا يحصى مداها ! . . وفى بعض مواطن الكتاب العزيز يذكر الله سبحانه رزق الأرض إلى رزق السماء حين يريد أن يفتح آفاق المحجوبين إلى ما ينزل عليهم من السماء من مطر ؛ ولكنه سبحانه حين أراد أن يبين أن الرزق الحق فى السماء لا فى الأرض قال : « وفى السماء رزقكم وما توعدون » ، وأقسم لهم على ذلك فقال : « فوربِّ السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون » .

مفاتيح السماء :

لقد خبأ الله لنا هذه الأرزاق فيما وراء المادة ، وجعلها فى الأفق الأعلى لمن يريد من عباده ؛ ولا قيمة لهذه الحياة الدنيا إذا لم تنزل إليها تلك الأرزاق من مستواها الرفيع ؛ . . ولا أنكد لعيش المرء ، ولا أبخس لقدره من أن يعيش فى محيطه المجدب محجوبا بعرضه الأدنى عما فوقه من رزق حق ، وفضل واسع ، وخير عميم !

وإذ قدر الله سبحانه أن تكون لنا حياة فى هذه الأرض استودعنا المفاتيح التى نفتح بها خزائن تلك الآفاق العلا ؛ حتى تكون الأرض كأنها سماء فى نعيمها وهداها ، أو كأن السماء هبطت إلى الأرض لكثرة ما يفاض على المرء من نور ورخاء وبهجة . . . تلك المفاتيح هى تقوى الله سبحانه ! ! . .

نعم هى تقوى الله ، ولا شىء غير تقوى الله .

ولقد قدمنا أن هناك إشراقة فى القلب تطوى للانسان ما بين الأرض والسماء وتجعل سنن الله أقرب إليه بالإجابة مما فى يده . . . تلك الإشراقة سمها ما شئت ، وقد سميناها سراً ؛ لأن أحوال القلوب المؤمنة سر من أمر الله ، لا يجمعه اللفظ ، ولا يحيط به الوصف ؛ وقد سماها الله سبحانه فى مقامنا هذا « تقوى » فلنكن عندما سمى الله !

فتقوى الله لا يقتصر أثرها على تصحيح الأعمال ؛ وسلوك الصراط السوى ، والنجاة من سوء العاقبة ؛ بل يمتد ذلك الأثر إلى استفتاح ما عند الله من أرزاق طيبة مباركة ، وهو عز شأنه الذى يقول : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض[1] . . . » ، « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب[2] . . »

(١) الأعراف — ٩٦ (٢) الطلاق — ٢ : ٣

وقد قدمنا أن مريم ابنة عمران كانت ترزق من طيب الطعام وتقول إنه من عند الله . . . وإنما كان ذلك بسر التقوى الذى رشح له الله سبحانه بقوله : « فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا » والذى تلمحه فى قرينة المحراب الذى كان بيت نسكها ومهبط رزقها فى قوله سبحانه : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا » .

ولقد كان عيسى بالمكان المرموق من تقوى الله عز وجل . فسأله الحواريون أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء ، وقالوا فى تسويغ هذا الطلب : « نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين » ، فدعا عيسى ربه فنزلت المائدة .

والآيات التى تدل على أن تقوى الله مفتاح الأرزاق التى تتنزل علينا بغير سنة ولا قانون كثيرة فى القرآن الكريم ، فارجع إليها إن شئت ؛ فإنما نحن فى مقام الاستشهاد لافى مقام الاستيعاب ، وحسبنا شاهداً — إلى ما قدّمنا من شواهد — قوله عز وجل على لسان نوح عليه السلام : « فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا » فالمطر الذى ينزله الله بسنة وقانون ومقدمات معروفة يمكن أن يستنزله المتقون حين يضرعون إلى الله مستغفرين لما فرط من ذنوبهم . . .
فمن كان يرى أن استغفاره لا يسعفه بما وعد الله فليعلم أن قلبه يفقد شرط التقوى ؛ وهى السر الذى يصنع به القلب ما شاء الله ، ويصعد به الاستغفار إلى ملكوت السماء ؛ « إنما يتقبل الله من المتقين » ، « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

ذلك شأن التقوى فى استفتاح خزائن الرزق الحسى ، وكذلك هو شأنها فى استفتاح خزائن الرزق الروحى . .

فإذا طلبت العلم والهدى فقد أوجبها سبحانه على نفسه لمن اتقاه وآمن به : « يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » ، « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » .

وإذا أردت الميسرة مدت لك التقوى أسبابها فى الأمر كله : « فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى » ، « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً »

وإذا شكوت رجس الشيطان يرين على القلب فتقوى الله تكفل لك صقالا يعيد جلوته ، ويبعث ضياءه الحبيس : « إن الذين اتقوْا إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » .

وإذا أردت معية ترعاك بيأسها فلا ترام ، وتظلك بعزها فلا تذل ، وتؤنسك بودها فلا تستوحش ، وتفوز معها بالمثوبة فى كل عاقبة ، فتقوى الله سبحانه مفتاح ذلك كله : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » « والعاقبة للمتقين » « ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون » .

بل لو خضت معركة فى سبيل الله وأردت أن يكون فيها معك ألوف الملائكة مدداً لك على عدوك فتقوى الله سبحانه هى سبيلك إلى هذا الأمر المعجز الخطير : « بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين »

ذلك بعض ما لنا فى تلك الأسواق العليا من بر ورزق وعطاء إلهى . . .

وقد تكفل القرآن الكريم بذكره كله فارجع إليه فإنه شفاء الصدور ، وحياة القلوب ونور البصائر ، وبهجة السرائر ، ولا غنى للانسان عنه فى هذه الأرض .

* * *

تقوى الله والأخذ بالأسباب :

وهذا الذى قلناه عن تقوى الله سبحانه لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب ،ولا يوهم أننا ندعو إلى ترك العمل وإهمال العدة ، ونبذ ما جعل لنا الله فى هذه الأرض من ثروة ؛ فتقوى الله سبحانه إن هى إلا سبب يسعى به الإنسان فى مجاله الروحى ، كما يسعى بسائر أسبابه الحسية فى مجاله المادى . . ! فإذا أخذ بتقوى الله وترك الأسباب الحسية فهو جاهل معطل لوجوده الواقعى ؛ وإذا أخذ بالأسباب الحسية وترك تقوى الله فهو فاجر معطل لأسمى أسبابه وأقواها . . وسنة الله التى رسمها لعباده هى أن يبذلوا الطاقة الروحية والحسية جميعاً ؛ إذ الروحية وحدها ليست بمغنية ، والحسية وحدها ليست بكافية ؛ وقد جاء القرآن الكريم بهما جميعاً ، فقال سبحانه عن الطاقة الروحية : « فاتقوا الله ما استطعتم » . وقال عن الطاقة الحسية : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » .

ذلك من حيث وجوب الأخذ بهما ونظر الشرع إليهما ؛ فإذا ما قارنت بينهما على ضوء القرآن ، وما قصه من حقائق واقعية وجدت سراً عجيباً وفرقاً كبيراً يتمثل فى أمور كثيرة نذكر منها ما يأتى :

الأول : أن الأسباب الحسية يقتصر أثرها على المجال الحسى وحده ، أما الأسباب الروحية فيمتد أثرها إلى المجال الروحى والحسى جميعا . . وفى القرآن الكريم

وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يرينا فضل التقوى حين تجعل الأسباب الحسية لدينا مضاعفة الأثر ، مباركة الثمر ، مكفولة النجاح بإذن الله .

الثانى : أن الإنسان مع التقوى — باعتبارها سبباً روحياً — يكون قريبا من الله موصول السبب به سبحانه ... أما الأسباب المادية — كالمال وكثرة العدد والعدة — فكثيراً ما تكون فتنة المرء تقطعه عن الله . . . فثقته بالله قد تتحول إلى ثقة بالأسباب نفسها — من حيث يدرى أو لايدرى — فتحجبه عن الله ؛ وذلك هو الخذلان المبين !.. إذ الفاعل الحق هو الله سبحانه لا تلك الأسباب ، فمن تخلى الله عنه ووكله إلى أسبابه فقد حبط عمله ، وتخلى عنه كل عون ، وربما أتاه الخذلان من قِبل الأسباب نفسها ! وذلك باب خطير عميق أفاضت كتب التصوف فى بحثه وتجلية حقائقه وآثاره .

الثالث : أن تقوى الله تجبر القصورَ — لا التقصير — فى الأسباب الحسية . . فقد يحدث أن يقصر جهد أهل التقوى عن أن يكون لهم مثل ما لعدوهم من المال أو السلاح أو العدد لسبب خارج عن إرادتهم فتتولَّى التقوى بإذن الله الوفاء بما قصرت عنه طاقة المقل ، ووسع العاجز ؛ ذلك أن السر الحقيق ليس فى الأسباب ، وإنما هو من الله خالقها وميسرها لمن يشاء . وسر الله فى القليل هو سره فى الكثير ، لا يزيد ولا ينقص ؛ فإذا رؤى العبد مفرطاً فى جنب الله محقت بركة مالديه ؛ أما إذا رؤى ناهضاً بحقه سبحانه ، ساعيا فى أمره ، مقيما لسنة بذل الوسع والطاقة ، نهض سر الله فغطى ما قصر عنه الجهد ، وفعل بالأسباب القليلة ما يندحر دونه جهد الكثير . . . واقرأ — إن شئت — غزوة بدر ، وقوله سبحانه : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ؛ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها » .

بل قد يستنفد أهل التقوى جهدهم الحسى فيما هم فيه من أمر الله ، ولا يبقى لديهم من الأسباب المادية قليل ولا كثير ، فتنهض لهم تقواهم بما كانوا يرجون أن تنهض به الأسباب ، بل بأكثر مما كان يدور بخلدهم من ذلك ؛ وهاهم أولاء فتية الكهف كانوا يدعون إلى الله جهدهم ، ويرجون أن تقوم للتوحيد دولة فى مملكتهم ، فلما ضيَّق عليهم الطغيان ، واضطهدهم ، وصب عليهم عذابه ، لم يجدوا فى أيديهم من إمكانيات الدعوة إلا أن يعتزلوا قومهم ، ويخرجوا من المدينة إلى كهف عتيد يمارسون فيه ما تنبض به قلوبهم من شعائر التوحيد لله عز وجل . . . ويقص الله سبحانه هذا الجانب من نبئهم بقوله الذى يحكيه عنهم : « وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون — إلا الله —

فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ... » ... فهم يأوون إلى الكهف لا لكى ينجوا بحياتهم ، ولا ليحرزوا أنفسهم من أذى عدوهم ؛ فالآية لا تقول هذا ، وإنما أووا إليه لأنهم حملة دعوة لا يمثلها فى البلاد سواهم ؛ والعمل لنشر رحمتها بين الناس واجب عليهم ، فإذا سلبهم عدوهم إمكانيات هذا العمل حسيا ، فهم يدركون سر الإيمان حينما لا يبقى فى وسع الإنسان سوى خفقته بالقلب ، فتنادوا أن أووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم ما تريدون من رحمة بين الناس . وانظر إلى فقههم الجميل فى الأسباب كيف رأوا أن الانطواء يثمر لهم الانتشار ؛ انطواؤهم فى الكهف حينما لم يجدوا سواه يثمر لهم انتشار ما يدعون إليه ، وقد صدقهم الله وعده ، فبارك لهم هذا العمل السلبى ، وجعل لهم من البركة والثمر مالا نظن أنه خطر ببالهم ؛ فقد أمسك الله عليهم الحياة ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، ثم بعثهم من غارهم ليروا الحال غير الحال والأمر غير الأمر ، فقد صار للتوحيد دولة قائمة وأمة مؤمنة وسلطان مبارك عتيد ... « وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها .. »

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا تلك الحقيقة الدقيقة من أمر الله فى قصة قصها عن رجل من بنى إسرائيل استسلف ألف دينار من رجل آخر ، فقال له صاحب المال ائتنى بشهيد ، فلم يجد الرجل شهيداً يشهد وقال لصاحبه : أما ترضى بالله شهيداً ؟ فقال رضيت بالله شهيداً فائتنى بكفيل ! ، فلم يجد الرجل من يكفله فى الدين ، فقال : كفى بالله كفيلا ! فقال صاحب المال : صدقت .. وأعطاه المبلغ .. وخرج الرجل فيما وراء البحار ، فلما حان أجل الوفاء بالدين أقبل على ساحل البحر يلتمس مركباً يرسل بها المال إلى صاحبه فلم يجد ، وطال بحثه وانتظاره على غير طائل : «فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ، ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها البحر ، ثم قال : اللهم إنك قد علمت أنى استسلفت فلاناً ألف دينار ، فسألنى كفيلا فقلت : كفى بالله كفيلا ، فرضى بذلك ، وسألنى شهيداً فقلت : كفى بالله شهيدا ، فرضى بذلك ؛ وإنى قد جهدت أن أجد مركبا أبعث بها إليه بالذى أعطانى فلم أجد مركبا وإنى استودعتكها ، فرمى بها فى البحر . » فخرج صاحب المال حين حل أجل الوفاء بالدين إلى ساحل البحر ينتظر قدوم المدين فلم يقدم ، ولكنه رأى خشبة قد طرحها الموج ، فأخذها لأهله حطبا ؛ فلما كسرها وجد المال والصحيفة التى كتبها له المدين يشرح فيها حاله .. وبعد مدة عاد المدين من سفره ومضى إلى صاحبه ليدفع له

الدين . فقال له : إن الله قد أدى عنك الذى بعثت به فى الخشبة ، فانصرف بمالك راشداً[1] . . ! !

فشاهدنا فى القصة أن بركة تقوى الله تولت عن الرجل المؤمن الصادق إيصال المال إلى صاحبه بعد أن ابتغى الأسباب المادية فى كل وجه فلم يجد ، فرفع طرفه إلى السماء يعلن إلى الله نفاد حيلته ، وانقطاع سببه فقال : « اللهم إنك قد علمت أنى استسلفت . . . وأنى قد جهدت أن أجد مركبا أبعث بها إليه بالذى أعطانى فلم أجد مركبا . . »

تلك شواهد جليلة من الكتاب والسنة تدل على أن تقوى الله سبحانه مفتاح عجيب وسر خطير ، يفتح به الله للانسان ما شاء من خزائن ، ويهب له ما شاء من سلطان على ما يعلم ومالا يعلم من سنن وجنود وقوى خفية فى ملكوت السماء والأرض ، حتى إنك لتستطيع أن تقرر — وأنت آمن كل خطأ أو غلو — أنها السنة العليا التى يُنفذ الله بها لأهلها ما يشاءون على هذا النحو العجيب ؛ حتى ليحسبهم الرائى أنهم حكام دولة السماء يتحكمون فى مقاديرها وسننها على ما يريدون ، كما يتحكم حكام دولة الأرض فى مقاديرها وسننها على ما يريدون ، ولكنه الله سبحانه تأذّن للبشر — وقد خلقهم من طينة هذه الأرض وحبسهم فى حبوس مادتها المظلمة — أن يجعل لهم بتقواه سلطانا ينفذون به من تلك الحبوس الضيقة إلى رحاب السماء ، ويكون لهم به فى ملكوتها ما يشاءون ، ماداموا صادقين فى ابتغاء وجهه على نحو ما قال سبحانه : « والذى جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك جزاء المحسنين[2] » .

ومن قبيل تلك السيطرة على القوانين والسنن ما جاء فى معنى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوشع بن نون كان يقاتل الجبارين ليدخل عليهم الأرض المقدسة إنفاذاً لأمر الله سبحانه . فلما أوشكت الموقعة أن تنتهى بنصره ، كانت الشمس تدنو للمغيب ، وكان اليوم يوم جمعة ، فخشى أن تغيب الشمس قبل أن يحرز النصر المأمول ، فيدركه السبت والقتال فيه محرم عندهم فتفلت الفرصة التى أمكنته من أعدائه ، فالتفت إلى الشمس وقال لها — على ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — : « إنك مأمورة ، وأنا مأمور ؛ اللهم احبسها علىّ ؛ فحبسها الله تعالى حتى فتحها . » . . ومثله ما روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه ، حين أمسكت السماء ، فقام

---

(١) روى ذلك الإمام أحمد بإسناد صحيح ، ورواه البخارى فى سبعة مواضع من طرق صحيحة معلقا عليها بصيغة الجزم .

(٢) الزمر — ٣٢ ، ٣٣

أعرابى والرسول عليه السلام يخطب يوم الجمعة ، فقال يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله ينزل علينا الغيث ؛ قال أنس : « فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده وما فى السماء قزعة ، فثار السحاب أمثال الجبال ؛ ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته » واستمر المطر ينزل إلى يوم الجمعة التالية حتى لحق منازل المدينة وسقفها بعض الأذى ، فقام الأعرابى أو رجل غيره ، وقال يا رسول الله : تهدم البناء وغرق المال ، فادع الله يكشف المطر عن المدينة وينزله على ما وراءها ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده وقال : « اللهم حوالينا ولا علينا » وفى رواية أنه قال : « اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير بأصبعه إلى السماء كأنه يرسم للسحاب الدائرة التى يجب أن ينكشف من داخل محيطها ؛ قال أنس رضى الله عنه — فى البخارى ومسلم — : « فما جعل يشير بيده إلى السماء إلا تفرجت حتى صارت المدينة فى مثل الإكليل — وفى رواية — حتى صارت فى مثل الجَوبة » : أى فى مثل الحفرة الواسعة المستديرة .

***

ذلك كله يكشف لنا عن ضآلة أفق المادة إذا رحنا نقارن بينه وبين ما فى الأفق الروحى من أسرار وأرزاق وآيات . . . ويكشف لنا عن ضآلة مداركنا العادية فى جهدها وحصيلة ثمرها إذا رحنا نقارن بينها وبين ما لنا من مواهب روحية ... ولسنا نتحدث فى هذا المقام عما يلحق الإنسان من خسارة حين يكفر بأفقه الروحى ، ويجعل تعويله كله على أفقه المادى وحده ؛ وإنما بصدد إيراد طرف من الحديث تتبين به معالم أفق الروح فى الكيان البشرى ، وهو الأفق الذى أراد الله سبحانه أن يعمره بالسر الذى نفخه فينا ؛ وهو أهم آفاقنا شأناً ، وأجلها قدراً . . . ونحسب أن قد تبين مما تقدم معنى قولنا فى صدر هذه الكلمة : « إن ذلك السر الروحى هو المملكة الربانية أو الجهاز الإلهى — ولله المثل الأعلى — الذى جهز به الإنسان ليؤدى به حق ما أسند إليه » . . .

إن الله سبحانه يريد لهذه الأرض أن تحيا بالحق ، ويريد لنا أن نقوم عنه بذلك ، فما لم يكن لنا من المواهب الروحية ما نستنزل به الحق ، وما نحمل به الحق ، وما نؤدى به الحق ، وما نجاهد به فى سبيل الحق ، فكيف نقوم بما يريد ؟ . . .

السُّنّة

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعى

(نشرت « المسلمون » فى أعداد السنة الماضية بحثاً مستفيضاً عن تاريخ السنة ، وها نحن نتابع نشر هذا البحث عن سنتنا الجديدة) .

التحرير

تدوين السنة :

بتلك الجهود الموفقة التى سردناها عليك بإيجاز (فى أعداد السنة الماضية من « المسلمون ») استقام أمر الشريعة بتوطيد دعائم السنة التى هى ثانى مصادرها التشريعية ، واطمأن المسلمون إلى حديث نبيهم ، فأُقصِيَ عنه كل دخيل ، وميز بين الصحيح والحسن والضعيف ، وصان الله شرعه من عبث المفسدين ودس الدساسين وتآمر الزنادقة والشعوبيين ، وقطف المسلمون ثمار هذه النهضة الجبارة المباركة التى كان من أبرزها مايلى :

أولا : تدوين السنة :

قدمنا أن السنة لم تدون فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كما دون القرآن ؛ وإنما كانت محفوظة فى صدور الصحابة نقلوها إلى من بعدهم من التابعين مشافهة ، وإن كان عصر النبى عليه الصلاة والسلام لم يخل من تدوين بعض الحديث كما قدمناه لك فى بحث كتابة السنة ، وقد انقضى عصر الصحابة لم تدون فيه السنة إلا قليلا . نعم لقد فكر عمر بتدوين السنة ولكنه عدل عن ذلك ، فقط أخرج البيهقى فى المدخل عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن فاستشار فى ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إنى كنت أردت أن أكتب السنن ، وإنى ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشىء أبداً(١) .

وعذره الذى أوضحه يتفق مع الظرف الذى كان فيه المسلمون ؛ إذ كان القرآن

---

(١) جامع بيان العلم : ج ١ ص ٧٦

غضاً طريا ، والأمم تدخل فى دين الله أفواجاً ، فلابد من توفرهم على كتاب الله حفظاً ودراسة وتلاوة ، حتى يكون الأساسَ لعقيدتهم ، والحامىَ لها من كل لبس وتغيير .

واستمر الأمر كذلك إلى أن وقعت الفتنة فى عهد عثمان ، وانتشر الكذب فى الحديث ، ونهض أجلاء التابعين فمن بعدهم لمقاومة حركة الوضع ، وقاموا بتلك الجهود الجليلة التى تحدثنا عنها . وقد كان من أول ثمار تلك الجهود أن دوّنوا السنة خوفاً عليها من الضياع وصيانة لها من التزيد والنقصان .

وتكاد تجمع الروايات أن أول من فكر بالجمع والتدوين من التابعين « عمر ابن عبد العزيز » إذ أرسل إلى أبى بكر بن حزم عامله وقاضيه على المدينة : « انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء » وأراد أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية (٩٨) والقاسم ابن محمد بن أبى بكر (١٢٠) ويظهر لى أنه لم يخص أبا بكر بن حزم بهذا العمل الجليل ، بل أرسل إلى ولاة الأمصار كلها وإلى كبار علمائها يطلب منهم مثل هذا ؛ فقد أخرج أبو نعيم فى تاريخ أصبهان أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أهل الآفاق : « انظروا إلى حديث رسول الله فاجمعوه » وبذلك يكون عمر قد أنفذ رغبة جده عمر بن الخطاب : تلك الرغبة التى جاشت فى نفسه مدة ثم عدل عنها خوفاً من أن تلتبس السنة بالقرآن ، أو ينصرف الناس إليها .

والذى يظهر أن أبا بكر بن حزم كتب لعمر شيئاً من السنة ، فقد أنفذ إليه ما عند عمرة والقاسم ، ولكنه لم يدون كل ما فى المدينة من أثر وسنة ؛ وإنما فعل هذا الإمام محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى (١٢٤) الذى كان علماً خفاقاً من أعلام السنة فى عصره ، والذى كان عمر بن عبد العزيز يأمر جلساءه أن يذهبوا إليه لأنه لم يبق على وجه الأرض أحد أعلم بالسنة منه ، هذا مع وجود الحسن البصرى وأضرابه يومئذ ، والذى ذكر مسلم عنه أن له تسعين حديثاً لا يرويها غيره ، وذكر كثير من أئمة العلم فى عصره أنه لولا الزهرى لضاعت كثير من السنن .

ويظهر أيضاً أن تدوين الزهرى للسنة لم يكن كالتدوين الذى تم على يد البخارى ومسلم وغيرهما من رجال الصحاح ، أو أحمد وغيره من رجال المسانيد ؛ وإنما كان عبارة عن تخصيص كل باب من أبواب العلم بكتاب على حدة : يجمع فيه الأحاديث المتناسبة مختلطة بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ؛ وهذا ما تقتضيه طبيعة البداءة فى كل أمر جديد ، وقد نستأنس لهذا بما روى عنه من أنه كان يخرج لطلابه أجزاء مكتوبة

يدفعها إليهم ليرووها عنه ، وبذلك يكون الزهرى رضى الله عنه أول من وضع حجر الأساس فى تدوين السنة فى كتب خاصة ، بعد أن كان أكثر من سبقه من علماء التابعين يكرهون كتابة العلم خشية من أن يؤدى ذلك إلى إضعاف الذاكرة ؛ بل كان الزهرى نفسه فى بدء شهرته العلمية يكره كتابة العلم ويمتنع عنه حتى رغب إليه بذلك عمر بن عبد العزيز ، وسيأتى معنا مزيد بيان لهذا البحث عند الكلام عن الزهرى فى بحث المستشرقين وموقفهم من السنة .

ثم شاع التدوين فى الجيل الذى يلى جيل الزهرى ، فكان أول من جمعه بمكة : ابن جريج (١٥٠) وابن إسحاق (١٥١) ، وبالمدينة : سعيد بن أبى عروبة (١٥٦) والربيع بن صبيح (١٦٠) والإمام مالك (١٧٩) ، وبالبصرة : حماد بن مسلمة (١٧٦)، وبالكوفة : سفيان الثورى (١٦١)، وبالشام : أبو عمرو الأوزاعى (١٥٦)، وبواسط : هشيم (١٨٨) وبخراسان عبد الله بن المبارك (١٨١) ، وباليمن : معمر (١٥٣)، وبالرى : جرير بن عبد الحميد (١٨٨) ، وكذلك فعل سفيان بن عيينة (١٩٨) والليث بن سعد (١٧٥) وشعبة بن الحجاج (١٦٠) ومحمد بن الحسن (١٨٩) فى كتاب الآثار وغيره .. وهؤلاء جميعاً كانوا فى عصر واحد ولا يدرى أيهم سبق إلى ذلك ، وكان صنيعهم فى التدوين أن يجمعوا حديث رسول الله مضافاً إليه أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، مع ضم الأبواب بعضها إلى بعض فى كتاب واحد ؛ قال الحافظ ابن حجر : إن ماذكر إنما هو بالنسبة للجمع فى الأبواب ، وأما جمع حديث إلى مثله فى باب واحد فقد سبق إليه الشعبى ؛ فإنه روى عنه أنه قال : هذا باب من الطلاق جسيم[1] .

ثم جاء القرن الثالث فكان أزهى عصور السنة وأسعدها بأئمة الحديث وتآليفهم العظيمة الخالدة ؛ فقد ابتدأ التأليف فى هذا القرن على طريقة المسانيد ، وهى جمع ماروى عن الصحابى فى باب واحد بقطع النظر عن موضوعها ؛ وأول من فعل ذلك ، عبد الله بن موسى العبسى الكوفى ، ومسدد البصرى ، وأسد بن موسى ، ونعيم ابن حماد الخزاعى ، ثم اقتفى أثرهم الحفاظ ؛ فصنف الإمام أحمد مسنده المشهور ، وكذلك فعل إسحق بن راهويه ، وعثمان بن أبى شيبة وغيره . وكانت طريقتهم فى التأليف أن يفردوا حديث النبى صلى الله عليه وسلم بالتأليف دون أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، ولكنهم كانوا يمزجون فيها الصحيح بغيره ، وفى ذلك من العناء مافيه على طالب الحديث ؛ فإنه لايستطيع أن يتعرف على الصحيح منها إلا أن يكون من أئمة

(١) توجيه النظر ص ٨ .

هذا الشأن ، فإن لم يكن له وقوف على ذلك اضطر إلى أن يسأل أئمة الحديث ، فإن يتيسر له بقى الحديث مجهول الحال عنده .

وهذا هو ماحدا بإمام المحدثين ودرة السنة فى عصره محمد بن إسماعيل البخارى (٢٥٦) أن ينحو فى التأليف منحى جديداً ، بأن يقتصر على الحديث الصحيح دون ماعداه ، فألف كتابه الجامع الصحيح المشهور ، وتبعه فى طريقته معاصره وتلميذه الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى (٢٦١) فألف صحيحه المشهور ، وكان لهما فضل تمهيد الطريق أمام طالب الحديث ليصل إلى الصحيح من غير بحث وسؤال ، وتبعهما بعد ذلك كثيرون ، فألفت بعدها كتب كثيرة من أهمها : سنن أبى داود (٢٧٥) والنسائى (٣٠٣) وجامع الترمذى (٢٧٩) وسنن ابن ماجه (٢٧٣). وكتب هؤلاء الأئمة الأربعة مع كتب الإمامين البخارى ومسلم هى التى يطلق عليها فى اصطلاح المحدثين « الكتب الستة » وقد جمع هؤلاء الأئمة فى مصنفاتهم كل مصنفات الأئمة السابقين ؛ إذ كانوا يروونها عنهم كما هى عادة المحدثين .

ثم جاء القرن الرابع فلم يزد رجاله على رجال القرن الثالث شيئاً جديداً ؛ إلا قليلا مما استدركوه عليهم ، وكل صنيعهم جمع ماجمعه من سبقهم ، والاعتماد على نقدهم ، والإكثار من طرق الحديث . ومن أشهر الأئمة فى هذا العصر : الإمام سليمان بن أحمد الطبرانى (٣٦٠) ألف معاجمه الثلاثة : الكبير والأوسط والصغير ، أما الكبير فقد رتب فيه الصحابة على الحروف ، وهو مشتمل على خمسمائة وخمسة وعشرين ألف حديث ، وأما الأوسط والأصغر فقد رتب فيهما شيوخه على الحروف أيضاً . ومن المؤلفين فى هذا العصر : الإمام الدارقطنى (٣٨٥) ألف سننه المشهورة ، وابن حبان البستى (٣٥٤) وابن خزيمة (٣١١) والطحاوى (٣٢١) .

وبهذا تم تدوين السنة وجمعها وتمييز صحيحها من غيره ، ولم يكن لعلماء القرون التالية إلا استدراك على مافات كتب السابقين من تدوينه فى مؤلفاتهم .. ومن أشهر ذلك مستدرك أبى عبد الله الحاكم النيسابورى الذى استدرك فيه على البخارى ومسلم أحاديث يرى أنها من الصحاح متفقة مع شرطهما ، مع أنهما لم يخرجاها فى صحيحهما ، وقد سلم له العلماء قسماً منها ، وخالفوه فى قسم آخر ؟

مِنْ علوم السُّنَّة

فى البيوع والكسب والمعاش وما يتعلق بالتجارة

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا

(٥)

باب ما جاء فى الصدق والأمانة والورع فى البيع والشراء وفضل ذلك وذم الكذب والحلف لترويج السلعة وغير ذلك

١ — عَنْ رَافِعِ بن خَدِيجٍ رضى الله عنه قال : قيل يا رسولَ الله أىُّ الكَسْبِ أَطْيَبُ ، قال : « عَمَلُ الرَّجُلِ بيده ، وكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ [١] » .

٢ — عَنْ عُرْوَةَ بن أبى الجَعْدِ رضى الله عنه قال : عَرَضَ للنبى صلى الله عليه وآله وسلم جَلَبٌ [٢] ، فأعطانى دِينَاراً فقال : « أىْ عُرْوَةُ ائت الجَلَبَ فَاشْتَرِ لنا شاةً » ، قال فأتيتُ الجَلَبَ فَسَاوَمْتُ صاحبَه فاشتريتُ منه شاتين بدينار ، فجئت أسوقهما (أو قال أقودهما) فَلَقِيَنِى رَجُلٌ فَسَاوَمَنِى فَابْتَعْتُه شَاةً بِدِينَارٍ ، فجئت بالدينار وجئت بالشاة ، فقلت : يا رسول الله هذا دِينَارُكم وهذه شَاتُكُمْ ، قال : « وَصَنَعْتَ كَيْفَ ؟ » ، فَحَدَّثْتُه الحَدِيثَ ، فقال : « اللهم بارك له فى صفقة يمينه [٣] » ، فلقد رأيتُنِى أقف بِكُنَاسَةِ [٤] الكوفة فأربح أربعين ألفاً قبلَ أن أَصِلَ إلى أهلى [٥] .

---

(١) البيع المبرور : هو التجارة التى يتحرى فيها صاحبها وجوه الحلال .

(٢) الجلب : مايجلب من بلد إلى بلد للبيع من كل شىء .

(٣) فى رواية أخرى فدعا له بالبركة ، فكان لواشترى التراب لربح فيه .

(٤) اسم موضع بالكوفة ، والكناسة أيضاً القمامة ؛ ولعل هذا الموضع كان معداً لرمى الكناسة ، ثم اتخذ بعد سوقاً .

(٥) كان يشترى الجوارى ويبيعها .

٣ — عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رضى الله عنه قال سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: « إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَلِفِ فى البيع فإنَّه يُنْفِقُ ثم يَمْحَقُ[1] » .

٤ — عن أبى هريرة رضى الله عنه يَبْلُغُ به[2] النبى صلى الله عليه وآله وسلم: « اليمينُ الكاذِبَةُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ » .

٥ — عَنْ عَبْدِ الرَّحْمن بن شِبْلٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « إنَّ التُّجَّارَ هُمُ الفُجَّارُ » قال: قِيل يا رسول الله أَوَ ليس قد أحل الله البَيْعَ؟ قال: « بَلَى، ولكنهم يُحَدِّثُونَ فَيَكْذِبُونَ، وَيَحْلِفُونَ وَيَأْثَمُونَ » .

٥ — عن قَيْسِ بن أبى غَرَزَةَ رضى الله عنه قال: كُنَّا نُسَمَّى السَّمَاسِرَةَ على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأتانا بالبقيع، فقال: « يا مَعْشَرَ التُّجَّارِ — فَسَمَّانَا باسْمٍ أَحْسَنَ من اسْمِنَا — إنَّ الْبَيْعَ يَحْضُرُه الْحَلِفُ وَالْكَذِبُ فَشُوبُوهُ[3] بِالصَّدَقَةِ » .

٦ — وعنه من طريق ثان قال: كُنَّا نَبِيعُ الرَّقِيقَ فى السُّوقِ، وَكُنَّا نُسَمَّى السَّمَاسِرَةَ، فَسَمَّانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بِأَحْسَنَ مِمَّا سَمَّيْنَا بِهِ أَنْفُسَنَا؛ فقال: « يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ إنَّ هَذَا الْبَيْعَ يَحْضُرُهُ اللَّغْوُ وَالأَيْمَانُ (وَفِى لَفْظٍ إنَّ هَذِهِ السُّوقَ يُخَالِطُهَا اللَّغْوُ وَحَلِفٌ) فَشُوبُوهُ بِالصَّدَقَةِ » .

٧ — عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يَنْهَى عَنْ بَيْعٍ[4]، فقالوا: يا رَسُولَ الله إنَّهَا مَعَاشُنَا، قال: فقال: « لاَ خِلاَبَةَ[5] إذن »، وَكُنَّا نُسَمَّى السَّمَاسِرَةَ فذكر الحديث.

---

(١) نفاق التجارة: رواجها، ومحقها: عدم البركة فيها.

(٢) أى يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم.

(٣) فشوبوه: أى اخلطوه بالصدقة، أمرهم بذلك ليكون كفارة لما يجرى بينهم من الكذب ونحوه.

(٤) أى من أنواع البيوع التى يشوبها خداع.

(٥) أى لا خداع، والمعنى: فإن كان ولا بد من البيع فاجتنبوا الخداع فيه.

٨ — عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « رُبَّ يَمِينٍ لاَ تَصْعَدُ إلى اللهِ بِهَذِهِ الْبُقْعَةِ[1] » ، فرأيتُ فيها النَّخَّاسِينَ[2] بعدُ .

٩ — عن محمد بن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ عن أبيه رضى الله عنه أن رَجُلاً أتى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يارَسُولَ اللهِ أَىُّ الْبُلْدَانِ[3] شرٌّ، قالَ : فقَالَ :لاأَدْرِى ، فلما أتاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام قال : يا جِبْرِيلُ أَىُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ ، قال : لاَ أَدْرِى حتى أسألَ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ ، فانطلق جبريل عليه السلام ، ثم مَكَثَ ما شاء الله أن يَمْكُثَ ، ثم جاء فقال : يا محمدُ إنَّكَ سَأَلْتَنِى أَىُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ فقلتُ : لاَ أَدْرِى ، وإنى سَأَلْتُ رَبِّى عَزَّ وَجَلَّ أَىُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ فقال : أَسْوَاقُهَا[4] .

باب ما جاء فى التساهل والتسامح فى البيع والإقالة وحسن التقاضى

١ — عَنْ عَطَاءِ بن فَرُّوخَ مَوْلَى القرشيين أَنَّ عُثْمان اشترى من رجل أرضا فأبْطأَ عليه[5] ، فَلَقِيَهُ فقال له : مامَنَعكَ مِنْ قَبْضِ مالِكَ ، قال : إنَّكَ غَبَنْتَنِى[6] ، فما أَلْقَى مِن النَّاسِ أحداً إلاَّ وهو يَلُومُنِى ، قال أوَ ذلك يمنعك قال : نعم ، قال : فَاخْتَرْ بَيْنَ أَرْضِكَ ومالك ، ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أَدْخَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْجَنَّةَ رَجُلاً كان سَهْلاً مُشْتَرِيًا وَبَائِعًا وَقَاضِيًا وَمُقْتَضِيًا » .

٢ — عن جابر بن عبد اللهِ رضى الله عنهما قالَ : كنا مع رسول الله صلى الله

(١) أى لاتقبل عند الله لكونها يمينا كاذبة ، ولم يبين البقعة المشار إليها ، وربما كانت فى ضواحى المدينة ، ثم اتخذت بعد ذلك سوقا .

(٢) جمع نخاس ؛ وهو بياع الدواب والرقيق .

(٣) معناه أى بقعة فى البلدان شر

(٤) إنما كانت الأسواق شر بقعة فى البلدان لما يكثر فيها من الكذب والغش والخداع والأيمان الكاذبة .

(٥) أى لم يحضر الرجل لقبض الثمن من عثمان بن عفان رضى الله عنه فى الميعاد المحدد .

(٦) أى غلبتنى فى هذه الصفقة بأخذ أرضى بأنقص من قيمتها .

عليه وآله وسلم فى سَفرٍ ، فاشترَى مِنِّى بَعيرًا ، فجَمَلَ لى ظَهْرَه[١] حتى أقدمَ المدينةَ ، فلمَّا قَدِمتُ أتيتُهُ بالبعير فدفعته إليه ، وَأمرَ لى بالثَّمَنِ ، ثم انصَرفْتُ ؛ فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قَدْ لحِقَنِى ، قال : قُلْتُ قَدْ بدَا لَه[٢] ، قال : فلما أتيْتُهُ دفع إلىَّ البعير ، وقال هُوَ لَكَ[٣] ، فمَرَرْتُ بِرَجُلٍ مِنَ اليهُودِ فأَخْبَرْتُه ، قال فجعلَ يعجبُ ، قال فقال: اشْتَرَى مِنكَ البعير ؟ وَدَفعَ إليكَ الثمن ؟ ووهب لك[٤] قال : قلت نعم .

٣ — وعنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « غفرَ اللهُ لرجل كان مِنْ قَبْلِكُمْ سَهْلاً إذا باع ، سَهْلاً إذا اشترى ، سَهْلاً إذا قضى ، سَهْلاً إذا اقتضى » .

٤ — عن عائشة رضى الله عنها قالت : دَخَلَتْ امرأة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : أىْ بِأَبِى وَأمِّى إِنِّى ابْتَعْتُ أنا وابنى من فُلَانٍ ثمرَ مَالِهِ (وفى رواية مِنْ ثَمَرَةِ أرْضِهِ) فأَحْصَيْنَاهُ ، وَحَشَدْنَاهُ ، لاَ وَالَّذِى أكْرَمَكَ بِمَا أكْرَمَكَ بِهِ مَا أصبْنَا منه شَيْئًا ، إلاَّ شَيْئًا نَأكُلُهُ فى بُطُونِنَا أَوْ نُطْعِمُهُ مِسْكِينًا رَجَاءَ البركة ، فَنَقَصْنَا عَلَيْهِ ، فَجِئْنَا نَسْتَوْضِعُهُ مَا نَقَصْنَاهُ ، فَحَلَفَ بِاللهِ لاَ يَضَعُ لَنَا شَيْئًا ، قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : تَأَلَّى[٥] لاَ أَصْنَعُ خَيْرًا (وفى رواية تأَلَّى ألاَّ يفْعلَ خيرا) ثلاث مرارٍ ، قالت فبلغ ذلك صاحبَ التَّمْرِ فجاء فقال : أىْ بأبى وأمى إن شئتَ وَضَعْتُ مَا نَقَصُوا ، وإن شِئْتَ مِنْ رَأسِ المال مَا شِئْتَ ؛ فوضع ما نقصوا .

---

(١) أى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم تركه له يركبه ويحمل عليه أمتعته حتى يصل إلى المدينة
(٢) أى ظننت أنه بدا للنبى صلى الله عليه وآله وسلم شىء بخصوص الصفقة .
(٣) يعنى هبة بعد أن استوفى جابر ثمنه .
(٤) إنما تعجب اليهودى لأن اليهود أحرص الناس على الدنيا ، ولا يصدقون أن أحداً يفعل ذلك
(٥) التألى : المبالغة فى اليمين ، والمعنى أن هذا الرجل حاف وبالغ فى يمينه أنه لايفعل خيراً .

الإنسانية
في الشريعة الإسلامية

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبي زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

١ — أول ما يلمحه القارىء للقرآن من سناه اللامع تكريم الإنسانية فى كل إنسان من غير اختصاص بلون أو جنس أو قبيل ؛ فالإنسان مكرَّم لأنه إنسان ، ومقدَّر لأنه إنسان ، ومكلف لأنه إنسان ؛ ولقد قال سبحانه : « ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

والإنسان فى هذا الوجود هو الخليفة فيه ، وهو القوام فى هذه الأرض ، قد سخر الله له كل شىء فيها ، جعلها الله له ذلولا يمشى فى مناكبها ، وقد سخر له الماء والهواء والنجوم يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، والشمس والقمر دائبين ، والليل والنهار .

ولقد قال سبحانه وتعالى فى خطابه للملائكة عن الإنسان الأول ، أبى الإنسانية آدم : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك ، لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

فهذه الآية الكريمة تعلو بالإنسانية فى نشأتها الأولى إلى أعلى مدارج الكمال ؛ فالإنسان هو الخليفة فى الأرض ، وهو الذى قدر له الله سبحانه وتعالى أن يعمرها ويصلح فيها ، ويسيطر عليها ، ويسخر له كل شىء فيها ، وكل ما يتصل بها ذلول له ، أو دانى الفائدة إليه . ثم قد أعطاه سبحانه نزوع الاطلاع والمعرفة والاستعداد العلمى الكامل ؛ فهو يعلم بتعليم الله الأسماء كلها ، يعرف حقائق الأشياء الأرضية ، أو يستعد لمعرفتها بتكوين الله سبحانه وتعالى له ، ثم يعطيه الكرامة الكبرى فيأمر الملائكة

بأن يسجدوا له فيسجدوا ، ويستكبر إبليس ، فيخرجه رب العالمين مذءوما مدحورا .

٢ — ذلك تكريم الإسلام للانسانية الأولى ، وقد خلق الله سبحانه الإنسان فى أحسن تقويم . والتكريم لمعنى الإنسانية وحدها ؛ ولذلك كانت الآدمية مكرمة فى بنى آدم جميعا ، إذ قد اشتركوا فى معناها ، فاستحقوا التقدير والتكريم بقدر واحد متساو فى أصل الفطرة والتكوين ، فلا فرق فى التكريم الفطرى المستمد من التكوين الإلهى للانسان بين حبشى وعربى ، ولا بين أبيض وأسود ، ولا ملون وغير ملون ، فليس ثمة شعب الله المختار ؛ بل الإنسانية كلها هى الخليفة المختارة فى هذه الأرض بمقتضى الإرادة الأزلية ، وليست هنالك جماعة خلقت للسيطره ، وأخرى خلقت للخضوع ، وليس هناك جنس خلق ليكون حاكما مطاعا ، وآخر خلق ليكون محكوما طائعا ، وإلا فالويل والثبور وعظائم الأمور ، وليس هناك شعوب نقصت فيها معانى الإنسانية ، وأخرى كملت فيها تلك المعانى ، وبمقتضاها تستحق هى البقاء ، والأولى تستحق الفناء ، وليست هنالك طائفة تسخر لخدمة أخرى ؛ بل الأرض بما فيها وما حولها كلها قد سخر للانسان : سيطر عليه بعقله ، وذلله الله له ، وهو الذى هداه للسيطرة عليه .

٣ — وإذا كان ابن الإنسان ينحرف فيتحكم فى أخيه فيعمل على إبادته ، أو تذليله لخدمته ، ويستخدم ما وهب فى هذا السبيل ، فإن ذلك من نزوع الغلب فيه ، والشهوة الحيوانية المفترسة التى ركبت فى الإنسان ممتزجة بالسمو الروحى فيه ، والتى إذا سيطرت جعلت من الإنسان ما يشبه الآساد فى آجامها ، والأوابد فى فلواتها ؛ فيكون الغلب للقوة ، وتنمى كل المعانى الإنسانية العالية ، وتتحكم المنازع الشيطانية .

ولقد نزلت الشرائع السماوية كلها لتقوية المعانى الإنسانية العالية وجعلها هى المسيطرة ، وإخفاء النواحى الحيوانية المستكنة فى أطواء النفس الإنسانية ، وإقامة الفطرة الإنسانية على أكمل وجه كما قال سبحانه وتعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

فأساس الدين القيم هو تقوية الفطرة الإنسانية العالية التى لم تدنس بأدران الشيطان وتلبيسات إبليس اللعين عدو الإنسان الأول ، وعدو الإنسانية إلى يوم الدين .

وإن ذلك الدين القيم يتحد معناه فى كل الشرائع السماوية التى أنزلت على النبيين ، ولذا قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ؛ الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من

بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولاتتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

٤ — فى هذه الدائرة الإنسانية العالية ، ونحو ذلك النزوع السامى كانت شريعة القرآن تأخذ بالإنسان من متناحَر الأهواء ، ومتنازَع الشهوات واصطراع الحق بالباطل ، ومغالبة الأجناس البشرية ؛ لترتفع به إلى السمو الإنسانى ، ولتستخرج الينابيع الصافية من النفوس الإنسانية ، وتجعلها الغالبة على كدرة الحيوانية والنزغات الإبليسية .

ولأجل هذا اتجهت الشريعة القرآنية إلى التسوية فى التكليف بين بنى الإنسان وجعلهم جميعا أهلا للخطاب ، وعلى استعداد كامل للتكليف ما داموا قد بلغوا رشدهم وتكاملت مداركهم ، واستعدوا للأمانة التى حمّلها الإنسان ؛ كما قال تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا » .

ولذلك كانت التكليفات واحدة لأن الفطرة واحدة ؛ فلا يكلف امرؤ على قدر علوه فى الأرض ، ولا يسقط تكليف عن كبير ، ويلقى الحمل على صغير .

ولكنّ ناسا قد نزل بهم ظلم الإنسان للانسان فاسترقهم إخوانهم وقد كونهم ربهم ليكونوا أحرارا ، فكان التكليف عليهم فى بعض الأحوال أقل من التكليف على إخوانهم الذين لم يثقل كاهلهم ذلك الظلم ، ولذلك سقطت بعض التكليفات عن الأرقاء ، وكانت عقوبتهم على النصف من الأحرار ؛ لأن هوانهم فى ذات أنفسهم بسبب نير الرق جعل الشرّ يهون فى نفوسهم فكان عدل الله أن تكون عقوبتهم دون عقوبة الأحرار؛ ولذلك قال تعالى فى حق الإماء : « فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » .

٥ — وإذا كان ثمة تفاوت فى القوى الإنسانية ، فإنه يجعل بين بنى الإنسان اختلافا فى الاتجاهات ، يضاف إلى ذلك أن بنى الإنسان مع اتحادهم فى أصل الاستعداد العقلى ووجود العقل عند جميعهم ، فإنهم يختلفون فى مقدار التفكير وفى الاتجاهات الفكرية ، فهذا يصلح للتجارة وذاك للزراعة وذلك للصناعة وآخر يصلح لطلب العلوم ؛ وطلاب العلوم يختلفون فهذا رياضى ، وذاك طبعى ، وذلك صناعى ، وآخر نظرى ،

وهكذا تختلف القوى وتتفاوت ؛ وكل ميسر لما خلق له ، وكل يسير فى الطريق الذى رسمه له استعداده الفطرى ومواهبه الإلهية ، فإن عوّق عن السير ووجّه إلى غير طريقه ضاعت أجزاء من قواه ، أو ضعف عن السير وتخاذل دون الغاية ، ولم تجد الجماعة فيه نفعا بمقدار ما فيه من مواهب لو وجهت فى اتجاهها .

٦ — ولقد قدر الشارع الإسلامى الذى يقيم الفطرة على أكمل وجوهها تلك الحقيقة ؛ فجعل أساس التكليفات الاجتماعية أمرين :

أحدهما : التعاون بين قوى الإنسان المختلفة ، فقال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » وجعل لمن عوّق عن السير الحق فى معاونة من استقام به السير إلى نهاية غايته ، وجعل للعاجزين حقا فى ثمرات القادرين ؛ ووضع النظم الثابتة لتنظيم هذا التعاون تنظيما كاملا يدر الخيرات ، ويفيض على الجماعات الفاضلة بالبركات ، ويسير بها إلى معالى الغايات الفاضلة فى البناء الإنسانى .

وكان للتعاون مع المنحرفين مظهر آخر ، وهو إرشادهم ، ودعوتهم إلى الفطرة القويمة والمنهاج الحق بالتى هى أحسن ؛ فإن لم يستقيموا وبدا شرهم ، واعتدوا فُلَّت قوتهم وخضدت شوكتهم ، وحملوا على التزام الجادة حملا ، أو على الأقل كف أذاهم .

٧ — الأمر الثانى الذى يعد أساسا للتكليفات الاجتماعية هو فى توجيه القوى الإنسانية نحو الغاية الكبرى وهى مصلحة الجماعة ، واستدرار كل مافى كل واحد من آحادها من ينابيع الخير . وقد كان لهذا ما يسمى فى الفقه الإسلامى فرض الكفاية .

ففروض الكفاية التى قررها الشرع الإسلامى هى لتوجيه القوى الإنسانية كل فيما خصص له ؛ ومن لاقدرة له فى أمر يعاون القادر عليه بتهيئة الجو الصالح له وتمكينه من أن يعمل ؛ فالتفقه فى الدين فرض كفاية ، وعلم الهندسة فرض كفاية ، والزراعة فرض كفاية ، والجهاد والطب من فروض الكفاية ، وكل صناعة أو عمل لاتستغنى عنه الجماعة ، ويقوم عليه نظامها الاقتصادى أو الاجتماعى أو الحكومى من فروض الكفاية التى يقوم بها البعض ، وإن لم تؤدّ فالتبعات تقع على الجميع .

وقد وضّح ذلك المعنى الشاطبى فى الموافقات فى فرض الكفاية فقال : « إن القيام بذلك الفرض قيام بمصلحة عامة فهم مطالبون بسدها على الجملة ، فبعضهم قادر عليها مباشرة ، وذلك من كان أهلاً لها ، والباقون وإن لم يقدروا قادرون على إقامة القادرين ، فمن كان قادراً على الولاية فهو مطلوب بإقامتها ، ومن لايقدر عليها مطلوب بأمر آخر هو إقامة ذلك القادر وإجباره على القيام بها ؛ فالقادر إذن مطلوب بإقامة الفرض ،

وغير القادر مطلوب بتقديم ذلك القادر ؛ إذ لا يتوصل إلى قيام القادر إلا بإقامته . من باب مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب » .

هذه عبارة الشاطبي بنصها ، وإنه لا يكتفى بذلك التفسير القويم ، بل يبين تفاوت الناس فى قدرتهم على الأمور واختلاف مواهبهم ، فهذا قد تهيأ للعلم وذاك قد تهيأ للرياسة وذلك قد تهيأ للصناعة ولكل فضل، والنتائج لأعمالهم متشابكة متعاونة . والواجب أن يربى كل امرىء على ماتيسر له حتى يبرز كل واحد فيما يقدر عليه ، ويقول فى نتائج تلك التربية : « وبذلك يتربى لكل فعل هو فرض كفاية قوم ؛ لأنه سير أولا فى طريق مشترك ، فحيث وقف السائر وعجز عن السير فقد وقف فى مرتبة يحتاج إليها فى الجملة ، وإن كان به قوة زاد فى السير إلى أن يصل إلى أقصى الغايات فى المفروضات الكفائية ، وبذلك تستقيم أحوال الدنيا وأعمال الآخرة . فأنت ترى أن الترقى فى طلب الكفاية ليس على ترتيب واحد ، ولاهو على العامة بإطلاق ، ولاهو على البعض بإطلاق ، ولاهو مطلوب من حيث المقاصد دون الوسائل ، ولا بالعكس ، بل لا يصح أن ينظر فيه نظر واحد ، حتى يفصل بنحو من هذا التفصيل ، ويوزع فى أهل الإسلام بمثل هذا التوزيع ، وإلا لم نضبط القول فيه بوجه من الوجوه ، والله أعلم(١) » .

٨ — وترى من هذا أن الإسلام يتجه فى تنظيم الجماعة الفاضلة نحو العمل الإنسانى بتضافر كل القوى ، والانتفاع من كل المواهب ؛ وبذلك تنبثق كل المواهب الإنسانية وتجرى فى مجرى واحد هو النفع الإنسانى العام ، والاتجاه نحو الغاية المشتركة وهى دفع الضرر وجلب المصلحة .

وإن الإسلام يتجه فوق ذلك إلى تهذيب الروح ، وإرهاف الوجدان ، وتقوية المنازع الروحية ؛ لينتصر كل امرىء فى الحرب التى يثيرها الشيطان فى قلبه ، ويتخذ من الجانب الحيوانى ذرائع لمحاربة الفضيلة ، وإنه إذا قويت الإرادة وعلا الجانب الروحى تحطمت ذرائع إبليس ، وخرج من قلب الإنسان مذءوما مدحوراً ، كما خرج من جنة الله فى بدء الخليقة .

وإن تربية الجانب الروحى كان بالعبادات التى فرضها ؛ وكلها يتجه إلى تهذيب النفس ، والإحساس بمراقبة الله فى كل عمل يعمله المرء كما ورد فى الأثر : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وإنه فوق ذلك الجانب الروحى فى العبادات الإسلامية توجيه اجتماعى سليم ؛ فالصلاة والصوم والحج ، نسك روحى ،

---

(١) الموافقات للشاطبي ج ١ ص ١٢٤

وتأليف اجتماعى ، ألا ترى فى الصلاة الصفوف قائمة يجلس الفقير ذو الأسمال البالية بجوار الغنى ذى الثياب الفاخرة الزاهرة ، ويجلس الأمير بجوار الخفير ، كما ينبغى أن يكون التدين الصحيح ، ولا يتحيز الأقوياء بمكان ، والضعفاء ينبذون فى غيره . والمسلمون جميعاً يشعرون بأنهم متجهون بوجوهم نحو قبلة واحدة ؛ لأنهم صف واحد فى هذا الوجود ، والصوم فيه — مع تهذيب الروح — تربية الإحساس الاجتماعى بالشعور بآلام الجوع وويلاته والعيش آناء النهار وأطراف الليل كما يعيش المحدودون المحرومون ، والحج هو الروح والاجتماع معا ، والزكاة تنظيم اجتماعى واقتصادى خالص

وهكذا يربى الإسلام المؤمن ليعلو بروحه فى ذات نفسه ، وليكون عنصراً مؤتلفاً مع جماعته ينفع ولا يضر ، ويألف ويؤلف ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « المؤمن مألف ، ولاخير فيمن لايألف ولا يؤلف » .

٩ — وإذا كان الإسلام قد اتجه بالآحاد نحو السمو الروحى ، والتأليف الاجتماعى والتنظيم بين القوى الإنسانية العاملة ، ورأب الصدع بالطب للعاجزين ، وسد حاجاتهم ، فإنه لم يجرد الإنسان من طيبات الحياة ؛ فليس الورع فيه حرمانا وتعذيباً جسدياً ، ولكنه ورع إنسانى يتفق مع كمال الإنسان ومطالب جسده ، حتى لقد قال أحمد ابن حنبل : « إن الورع هو طلب الحلال » . ولذا أباح زينة الحياة ، وطيباتها من غير إسراف ولاخيلاء ، فقد قال تعالى : « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة » . ولقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « كلوا واشربوا والبسوا فى غير إسراف ولا مخيلة »

هذه لمحات إنسانية فى المعانى الإسلامية ، ونرجو أن نوفق لبيان المصالح الإنسانية وعموم النفع الإنسانى فى الشرع الإسلامى ، والله سبحانه هو الموفق .

---

(١) الموافقات للشاطبي ج ١ ص ١٢٤ .

الله الله فى القرآن !

للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

منذ أيام ونفسى تلح علىّ إلحاحا شديداً بكتابة كلمة صريحة فى هذا الموضوع ، لعل الله ينير منا البصائر فنرى الخطر الداهم الذى يوشك أن ينال الإسلام من أساسه ، ويكون من ذلك أن نعمل فى جد وحزم على دفع هذا الخطر قبل ألا نستطيع له دفعا .

وذلك ، أن من ينظر إلى المستقبل القريب ، ولا أقول البعيد ، يوقن يقينا لا ريب فيه أنه بعد انقراض هذا الجيل من حفظة القرآن لن نجد فى مصر من يحفظ شيئا منه ، بل من يجيد تلاوته من المصحف ، وإذا كان هذا فى مصر ، معقل الإسلام ورأس العربية والعروبة ، فسيكون الأمر كذلك فى غيرها ؛ لأن مصر هى التى تنفرد بحفظ القرآن منذ زمن طويل ، وحينئذ يفقد القرآن — لا قدر الله تعالى — صفة التواتر التى يتميز بها عن سائر كتب الله المقدسة .

ولولا أننا نؤمن بقدرة الله ، وأنه هو الذى أنزل كتابه هدى ونوراً لخلقه ، وهو الذى تولى حفظه إذ يقول : « إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون » ليئسنا منذ الزمن البعيد ؛ وذلك بسبب السياسة التى تتحكم فى وزارة المعارف والتعليم ، والتى انتهت اليوم بعدم وجود معهد رسمى يقوم على تحفيظ القرآن .

ونذكر بعد هذا شيئا من التفصيل ، لعل فيه تذكيرا للناس وتنبيها للغافل ، والله المستعان .

١ — كانت المدارس الأولية قبل النظام الجديد للتعليم تعنى بعض العناية بالقرآن وتحفيظه ، بل كان بالكثير منها « أقسام للحُفَّاظ » . واليوم وقد أخذت رياض الاطفال تحل محل هذه المدارس ، أصبحنا لا نجد أثراً لهذه الأقسام ، بل انعدمت العناية بالقرآن فى هذه المرحلة من مراحل التعليم .

٢ — وكانت مدارس المعلمين الأولية تشترط فيمن ينتسب إليها حفظ القرآن كله ، ثم صارت بعد حين تشترط حفظ نصفه ، على أن يؤدى قبل تخرجه الامتحان بنجاح فى حفظه تاماً . واليوم — ابتداء من هذا العام — أبيح أن يتقدم لهذه المدارس حملة الشهادة الابتدائية ، ومعنى هذا ألغى شرط حفظ شىء من القرآن فى طلبتها ، بل أصبح لغير المسلم أن يتقدم للانتساب إليها ما دام معه الشهادة الابتدائية

٣ — وكانت كلية دار العلوم ، تحتفظ حتى العام الماضى بطابعها الإسلامى ، إذ كانت تأخذ طلبتها من الحائزين للشهادة الثانوية من أبناء الأزهر ، وهؤلاء يفرض فيهم أنهم يحفظون القرآن تاما أو غير تام . وفى هذا العام الحالى أخذت طلابها من حملة الشهادة التوجيهية الذين لا يحفظون القرآن طبعا ، إلا من رعاه الله فنشأ فى بيت متدين لحفظ شيئا منه بوسائله الخاصة . وليس يغنى شيئا فى هذا السبيل تعهد الطالب أن يحفظ القرآن داخل الكلية ، وأن يؤدى امتحانا فيه قبل تخرجه ؛ لأن ذلك يعتبر تكليفا بما لا يطاق عادة .

٤ — وكان طلاب المعاهد الابتدائية من الأزهر لا يدخلون هذه المعاهد إلا وهم يحفظون القرآن كله ، ثم تساهل أولو الأمر بالأزهر تحت ضغط مايسمونه الظروف ، فأصبحوا لا يشترطون إلا حفظ نصفه . ونعتقد أن هذا الشرط الأخير أصبح أيضا هذه الأيام حبرا على ورق كما يقولون ، وأصبح الكثير من طلبة هذه المعاهد لا يحفظون شيئا ذا غناء من القرآن .

٥ — وبكلمة واحدة ، صار أبناؤنا يذهبون فى أول نشأتهم إلى رياض الأطفال ، وهذه تسلمهم إلى مرحلة التعليم الابتدائى ، ثم ينتقلون إلى التعليم الثانوى ، وأخيراً الجامعة . فمتى وأين يتعلمون القرآن ويحفظون قدرا صالحا منه ؟ بل كيف يحسن الواحد منهم تلاوته ؟

٦ — يقولون إن منهجا جديدا وضع للتعليم فى المرحلتين الابتدائية والثانوية ، وإنه حسب هذا المنهج أصبح للدين ستة دروس فى الأسبوع فى الابتدائى واثنان فى الثانوى .

وهنا نذكر أنه لا يخصص للقرآن فى هذا المنهج إلا ثلاثة دروس فى الابتدائى ، ودرس واحد فى الثانوى ، فهل فى هذا كفاية لحفظ شىء من القرآن ؟ ثم إن مادة الدين كلها لا امتحان فيها ، ومن ثم لا يهتم التلاميذ ولا المدرسون بها طبعا ، بل إن جمهرة هؤلاء يشغلون دروسها بدروسهم فى المواد الأخرى ؛ وبذلك يصبح أمر تعليم الدين لعبا وسخرية بالدين نفسه !

٧ — وقد يقال بأن هناك جمعيات خاصة غير رسمية تهتم بتحفيظ القرآن ، ولكن من أين تستمد هذه الجمعيات تلاميذها من أبناء الأمة ؟ إن الآباء تفتنهم رياض الأطفال والمراحل الأخرى الرسمية للتعليم ، كما يفتنهم المستقبل الزاهر لخريجى هذه المعاهد والجامعة من بعدها . والنتيجة الطبيعية لهذا وذاك الانصراف عن جمعيات تحفيظ القرآن ، وبخاصة وليس لخريجها أى ضمان للمستقبل الطيب والحياة الكريمة .

٨ — لقد رأينا إذن من ذلك ، أن نظام التعليم العام ، الذى يتولى النشء وهم أطفال حتى يتخرجوا من الجامعة ، قد وُضع ليصرف الأمة عن حفظ القرآن ، بل عن العناية بإجادة تلاوته ! وهذا إلى درجة تجعل من المتعذر أن يجد من يريد لأبنائه حفظ القرآن الوسيلة لذلك !

وبعــــد

أيها الناس ! نريد أن يعلم من يجب أن يعلم أن مصر بلد إسلامى ، وأنها معقل الإسلام فلا تبغى عنه حِوَلا ، وأننا مصممون على أن نظل دائما رعاة الإسلام وحماته ، وأنه لا سبيل لذلك إلا بالعناية بالقرآن كتابه الأول : حفظا ومدارسة وفهما وعملا به ، وبسنة الرسول الكريم ، وأنه ليس فى شىء من ذلك دعوة لفرقة دينية أو طائفية ؛ فالإسلام أحرص الأديان على الألفة والمودة وجمع كلمة أبناء الوطن الواحد ، ما دام كل من أبنائه متمسكا بدينه لا يريد بأخوته فى الوطن أى شىء من الظلم أو العدوان ؛ وفى ذلك يقول القرآن نفسه : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تَبرُّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » .

أيها المسلمون ! إن القرآن كتاب الإسلام ودعامته وأساسه الوحيد ، وإن الله قد أنزله هدى للمتقين ونورا أخرج به العالم من ظلمات الشرك والجهالة ، وإنه المصدر الأول لشريعة الإسلام ونظمه الرشيدة الحكيمة فى الحكم والإدارة ، هذه النظم التى بها صلاح المسلمين والعالم كله فى الحاضر والمستقبل من الزمان .

أيها المسلمون ! إن هذا الكتاب الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ لأنه تنزيل العليم الحكيم ، هو الذى يقول فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه على ما رواه سيدنا على رضى الله عنه ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ستكون فتن كقطع الليل المظلم » قلت يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : « كتاب الله تعالى ؛ فيه نبأ مَن قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ، ونوره المبين . . . وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . . . من حكم به عدل ، ومن عمل به أُجر ، ومن دعا إليه هُدِى إلى صراط مستقيم[1] » .

---

(١) راجع الحديث كله فى أحكام القرآن للقرطبى ، ج ١ : ٤ من الطبعة الأولى لدار الكتب .

أيها المسلمون ! لقد عشت فى باريس مدة طويلة من الزمن ، وفيها عرفت كثيرا من أبناء الشعوب الإسلامية من شق أقطار الأرض ، وتحققت أن الله اختص مصر بميزة حفظ القرآن والقيام عليه ؛ إذ قصارى غير المصريين إجادة تلاوته من المصحف كما كنا نسمع من القارىء يوم الجمعة بمسجد باريس . بل عرفت أن من الشعوب الإسلامية من لا يجدون السبيل لاقتناء المصحف ، أمثال أبناء غرب إفريقية الواقعة تحت سلطان فرنسا العاتية فى ظلمها وجبروتها متى وجدت نفسها إزاء شعب ضعيف ، وأمثال أبناء جنوب إفريقية الذين يسيطر عليهم النفوذ الإنجليزى الاستعمارى الظالم . وإن علينا ، حين نعلم ذلك ونلمسه ونراه ، أن نعمل فى جد وحزم وقوة على أن نحتفظ بالميزة التى اختصنا الله بها ، وأن نعمل كذلك على أن يصل القرآن لكل أبناء الأمة الإسلامية ومعه قوم يقومون على تحفيظه وتفهيمه ودراسته ، وذلك كله كما تفعل الدول والأمم المسيحية فى هذه البلاد بالنسبة للتوراة والإنجيل ونشر الدين المسيحى بكل طريق ، وذلك برغم ما يزعمون من حرية الاعتقاد !

أخى فى الله والوطن الرئيس محمد نجيب ! إن الله قد خصك بمكرمة لم يخص بها أحدا من أبناء هذا الجيل ، واصطفاك لرسالة تؤديها فى هذا الزمن لمصر والإسلام ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وإن الله لا يخلى من يصطفيه لأمر جلل كالذى اصطفاك له من نصره ورعايته متى ظل قائما على رسالته عاملا على تحقيقها بكل سبيل يتفق مع الحق والقانون . هذه الرسالة هى إعادة بناء هذه الأمة بعد أن زال طاغوتها وطغاتها ، ولا سبيل للبناء الصالح للخلود إلا أن يقوم على أسس سليمة قوية ، وأول هذه الأسس هو القرآن وما جاء به ، فعلينا أن نمكن له فى صدور أبناء الأمة الإسلامية جميعا ، وذلك بالعمل على حفظه بمصر ونشره فى سائر بلاد الإسلام .

وليس لهذا إلا طريق واحد ، بعد أن حيل فعلا فى ظل قانون التعليم ونظمه القائمة الحالية الطرق على من يريد حفظ القرآن فى معاهد الدولة ، وهذا الطريق هو إصدار قانون يحتم حفظ نصف القرآن مثلا فى المرحلتين الابتدائية والثانوية . وبعد ذلك يكون من الممكن متى عرف الشاب المثقف المسلم جدوى القرآن فى تقويم لسانه ، وتثقيف عقله ، واطمئنان قلبه وتحبيبه إلى المثل الأخلاقية العليا . نقول بعد أن يدرك الشاب المسلم ذلك ونحوه ، يندفع من نفسه لحفظ باقى القرآن .

ثم إصدار قانون آخر يعترف بجمعيات تحفيظ القرآن ، ويعين تلاميذها ، ويعترف بشهاداتها النهائية وأنها تجيز لهم الالتحاق بالمدارس الثانوية مع التجاوز عما يكون

من فرق السن ، ومع تعديل مناهجها بما يؤهلهم لذلك بعد أن يكونوا قد أتموا حفظ القرآن .

هذا هو ما يريد الإسلام من الدولة فى هذا السبيل . أما الأزهر فعليه أن يعود إلى سنته الأولى ، فيحتم شرط حفظ القرآن على من يريد الانتساب إليه ، وينفذ هذا الشرط فعلا ، وإن العمل لذلك أولى برجال الأزهر من أن يدس بعضهم لبعض ويصارع بعضهم بعضا فى سبيل المنصب والجاه والنفوذ وحطام هذه الحياة .

وأخيرا ، إننا إن لم نقم بواجبنا فى هذا السبيل : حكومة وهيئات وشعبا ، لم يكن لنا أن ننتظر عناية الله ونصره ، وكنا أمة مسلمة بنص الدستور فحسب دون الواقع العملى ؛ أمة تقول ولا تفعل ، وتتمنى ولا تريد ، أو تريد ولا تصمم على تحقيق ما تريد من الخير لها وللعالم كله . ونعوذ بالله من أن نصير إلى ذلك بعد أن استيقظنا من النوم وتخلصنا من سياسة العهد الذى نرجو أن يكون قد انتهى إلى غير رجعة بكل سيئاته وأوزاره ورجاله وأحزابه .

هذا ، وليس من العسير على من يريد ممن تقدمت بهم السن حفظ باقى القرآن ، متى حفظ قدرا صالحا منه فى صغره ، وبخاصة ومعرفته بعلوم اللغة وما إليها تعينه على حفظ القرآن إذا صار أهلا لتذوقه وفهمه . ولعل من الخير أن نشير هنا إلى ما أحرزه كثير من شباب « الإخوان المسلمون » من النجاح فى هذا السبيل[1] . والله الموفق لكل خير ، ونسأله العون والتوفيق ؟

---

(١) انظر ما كان عليه أقطار الإسلام فى هذه المسألة ، فى مقدمة ابن خلدون ص ٤٤٧ـ٤٤٩ طبع مطبعة التقدم عام ١٣٢٢ هـ ، فى الفصل الخاص بتعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية فى طرقه .

نحو مجتمع إسلامى :

المستقبل للإسلام

للأستاذ سيد قطب

(٣)

لعل قائلا — بعد الذى تقدم — أن يقول : إذا كانت المسيحية قد استنفدت أغراضها منذ القرن الخامس ، ولم تعد لها وظيفة إيجابية فى حياة المجتمع الإنسانى ، لأن النظم التى قامت على أساسها قد ترنحت منذ ذلك الحين ، باعتراف باحث مسيحى ، وباعتراف الواقع الذى يشهد بأن المجتمع قد انعزل عن روح المسيحية فى البلاد المسيحية ذاتها ، وقامت أسسه على أفكار مادية بحتة : بعضها مستمد من التقاليد الرومانية القديمة ، وبعضها مستمد من المذاهب الفكرية المادية الحديثة .

إذا كان هذا قد وقع للمسيحية ، فلم لا يكون مثله قد وقع للاسلام ؟ لم لا يكون الإسلام قد استنفد أغراضه فى خلال أربعة قرون أو خمسة ، ولم يعد يملك أن يكون قوة إيجابية فى حياة البشرية ؟ لأن المجتمعات الإسلامية ذاتها قد تخلت عنه منذ فترة طويلة ، واتجهت إلى خليط من الأفكار والمبادىء ، إن لم تكن مادية منظمة كالمادية الأوربية ، فإنها على كل حال ليست هى الإسلام ، وليست هى الفكرة الإسلامية على حقيقتها !!!

ولقد كان من اليسير علىّ أن أرد بعقيدة المسلم فأقول : إن المسيحية إنما هى نحلة محلية جاءت لتكون قاصرة على بنى إسرائيل . باعترافها هى ذاتها على لسان المسيح : «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة[1] » ، وهى تكملة لليهودية الأولى ، وليست رسالة مستقلة باعترافها ، وباتخاذها « العهد القديم » المحتوى على شرائع موسى ، وعلى كافة الأساطير والأقاصيص التى يضمها هذا العهد ، كتابها المقدس ، كالعهد الجديد تماماً ، وهو الذى يضم الأناجيل والرؤى وقصص القديسين والصالحين من المسيحيين .. بينما الإسلام رسالة إنسانية عامة ، وهو الرسالة الأخيرة التى لم تحدد نفسها بقوم ولا زمان ولا مكان .

---

(١) إنجيل متى إصحاح ١٥ آية ٢٤

كان من اليسير علىَّ أن أرد على ذلك القول بعقيدة المسلم هذه . ولكننى أحببت أن أسلك طريقا آخر ، وأن أناقش القضية مناقشة موضوعية — سيأتى تفصيلها فى ثنايا عرض الأسس التى يقوم عليها نظام المجتمع الإسلامى . وهى الموضوعات التى يقوم عليها هذا البحث — ومن هذه المناقشة يتبين إن كان لذلك القول مبرر ، أم أنه مجرد قياس ظاهرى لايقوم على حقائق موضوعية .

وإنى لأكتفى هنا بأن أقول على سبيل الإجمال الذى سنتولى فيما بعد تفصيله : إنه مامن فكرة عرفتها البشرية حتى اليوم فى تنظيم العالم كوحدة إنسانية ، وفى تنظيم المجتمع كوحدة بشرية ، إلا وفكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان أكبر منها وأرحب ، وأعظم قابلية للنمو والتجدد ، وأكثر قدرة على التوفيق والتنسيق بين قوى الحياة وطاقات الإنسان ، وحاجات البشرية على وجه العموم . وإن النظام الاجتماعى المستمد من هذه الفكرة المنبعث تلقائيا من مجرد استقرارها فى الضمير البشرى ، هو أعدل النظم وأكثرها توازنا ومراعاة للفطرة وإطلاقا للقوى والطاقات الصالحة ، لتعمل على إنماء الحياة وترقية الحياة .

وحين يثبت هذا القول ، فإن انحسار الموجة الإسلامية الأولى لايكون دليلا على استنفاد أغراض هذه الفكرة وهذا النظام ؛ إنما يكون تأويله الصحيح أن البشرية لم تكن صالحة فى ذلك الحين إلا لهذا القدر الذى تحقق وقتها من رسالة الإسلام . والذى تحقق ليس بالشىء اليسير . إذا أردنا أن نكون منصفين فنستلهم الحقائق التاريخية وحدها فى معزل عن الدعايات المغرضة أوعن المبالغات المفرطة . حين نعلم أن الإسلام كان يعرض على البشرية وينفذ مايعرض : مبادىء الحرية والعدل والإخاء والمساواة . فى عالم تحكمه الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية حكما إقطاعياً إرهابياً يقسم الناس إلى سادة وينكر على العبيد صفة الإنسانية ، ويتشكك فيما إذا كانت المرأة — البيضاء — ذات روح إنسانى أم غير ذات روح ! مما جعل المسيحيين واليهود والخاضعين لسلطات الامبراطوريتين يهرعون إلى هذه المبادىء الجديدة التى لم تعرف لها البشرية من قبل نظيراً . ثم تغلب هذه المبادىء حتى تصبح هى مبادىء البشرية كلها ولكن بعد أحد عشر قرنا ... حينما تعتنقها أوربا فى العصر الحديث منذ أيام الثورة الفرنسية . فلاتبلغ بها لافى عالم المبادىء ، ولافى عالم النظم مابلغ بها الإسلام فى أيامه الأولى ؛ لأن الطبيعة المادية التى ورثتها أوربا عن الدولة الرومانية ، لم تسمح لها يوماً أن تدرك بضميرها حقيقة هذه المبادىء الإسلامية ، وإنما تأثرت بها من الظاهر

بعد اتصالها بالعالم الإسلامى فى الحروب الصليبية ؛ فكانت كل النهضات وكل الثورات فى أوربا !

وقد استطاع الإسلام عن طريق هذا الاتصال أن يؤثر فى النهضات الأوربية الأخيرة التى جاءت أثراً مباشراً للحروب الصليبية ولقيام دولة الأندلس فى أسبانيا باعتراف الأوربيين أنفسهم . استطاع فى هذا المجال أن يؤثر مالم تؤثره المسيحية التى كانت ومازالت الديانة الرسمية للرقعة الأوربية .

ومرد هذا إلى طبيعة الإسلام الإيجابية ، وطبيعة المسيحية السلبية ، فيما يختص بالتنظيم العملى المجتمع ؛ فالمسيحية لم تكن يوماً قادرة على التأثير الكامل فى المجتمع الغربى القائم على التقاليد الرومانية لأنها لم تقدم لهذا المجتمع صورة عملية واضحة للمجتمع الذى تريده هى ، وإن كانت قد قدمت صورة شاعرية رقيقة للفرد الذى تريده .

أما الإسلام فقد قدم الفكرة وقدم معها ترجمتها العملية فى صورة مجتمع . ومع أن صور المجتمعات الإسلامية لم تكن فى الأندلس ، ولا فى أيام الحرب الصليبية هى خير الصور التى يقدمها الإسلام . فإن مابقى فيها من آثار الفكرة الإسلامية الكبرى ومن آثار الحضارة المادية والعقلية كان كفيلا بأن يبهر الأوربيين فى ذلك الحين ، وأن يدفع بهم دفعة قوية إلى عصر الإحياء ، وأن يثير فى رؤوسهم فكرة الحرية والإخاء والمساواة مبلورة فيما بعد فى الثورة الفرنسية ، التى تعد آخر دفعة من دفعات الحضارة الغربية فى المجال الإنسانى .

هذه الحقائق التاريخية وحدها كفيلة بأن تقودنا إلى تأويل معين لوقوف المد الإسلامى الأول . هو التأويل الذى أسلفنا ... هو أن البشرية لم تكن مستعدة فى ذلك الأوان إلى أن تطيق أكثر مما أطاقت من ذلك الزاد الخالد ، وأن تجارب البشرية الطويلة بعد هذا كفيلة بأن تجعلها أقدر على تلقى ذلك الزاد ، والانتفاع به أكثر من أى وقت مضى .

وكل هذا يضاعف التبعة الملقاة على عواتقنا فى إعادة عرض الأفكار والنظم التى جاء بها هذا الدين ، لتكون زاد الإنسانية الخالد ، تثوب إليه بين الحين والحين وتستمد منه الدفعة بعد الدفعة فى طريق الحياة الطويل .

وفى هذا البحث سنعرض — إن شاء الله — نظم المجتمع الإسلامى وأسسه كما يمكن أن يكون عليه هذا المجتمع فى الحاضر القريب ، وكما يمكن أن يتطور فى المستقبل البعيد. ومن هذا العرض ستتبين الإمكانيات الضخمة المتجددة لهذا النظام ، بغض النظر عن الصور التاريخية التى حققها ، والتى ليست هى الصور الوحيدة الممكنة ، كما يظن الكثيرون ممن يجهلون حقيقة الإسلام ؟

من القديم :

صفحة حية من تاريخ الحركة الإسلامية

للامام الشهيد حسن البنا

« فى هذا الأسلوب السهل الممتنع ، وفى وضوح يأخذ اللب والقلب معاً ، يحدثنا الرجل العظيم عن فترة من تاريخ مصر قدر لها أن تحظى به ، وتشهد مطلع كفاحه »

التحرير

موجة الإلحاد والإباحية فى مصر

« ... وعقب الحرب الكبرى ، وفى هذه الفترة التى قضيتها بالقاهرة ، اشتد تيار موجة التحلل فى النفوس وفى الآراء والأفكار باسم التحرر العقلى ، ثم فى المسالك والأخلاق والأعمال باسم التحرر الشخصى ، فكانت موجة إلحاد وإباحية قوية جارفة طاغية ، لايثبت أمامها شىء ، تساعد عليها الحوادث والظروف .



لقد قامت تركيا بانقلابها الكمالى وأعلن مصطفى كمال باشا إلغاء الخلافة ، وفصل الدولة عن الدين فى أمة كانت إلى بضع سنوات فى عرف الدنيا جميعاً مقر أمير المؤمنين ، واندفعت الحكومة التركية فى هذا السبيل فى كل مظاهر الحياة .

ولقد تحولت الجامعة المصرية من معهد أهلى إلى جامعة حكومية تديرها الدولة وتضم عدداً من الكليات النظامية ؛ وكانت للبحث الجامعى والحياة الجامعية حينذاك فى رؤوس الكثيرين صورة غريبة مضمونها أن الجامعة لن تكون جامعة علمانية إلا إذا ثارت على الدين وحاربت التقاليد الاجتماعية المستمدة منه ، واندفعت وراء التفكير المادى المنقول عن الغرب بحذافيرة ، وعُرِف أساتذتها وطلابها بالتحلل والانطلاق من كل القيود .

ولقد وضعت نواة « الحزب الديمقراطى » الذى مات قبل أن يولد ولم يكن له منهاج إلا أن يدعو إلى الحرية والديموقراطية بهذا المعنى المعروف حينذاك : معنى التحلل والانطلاق .

وأنشىء فى شارع المناخ مايسمى المجمع الفكرى ، تشرف عليه هيئة من « التيوثوفيين » وتلقى فيه خطب ومحاضرات تهاجم الأديان القديمة ، وتبشر بوحى جديد ، وكان خطباؤه

خليطاً من المسلمين واليهود والمسيحيين وكلهم يتناولون هذه الفكرة الجديدة من وجهات النظر المختلفة .

وظهرت كتب وجرائد ومجلات كل مافيها ينضح بهذا التفكير الذى لا هدف له إلا إضعاف أثر أى دين ، أو القضاء عليه فى نفوس الشعب لينعم بالحرية الحقيقية فكريا وعمليا فى زعم هؤلاء الكتاب والمؤلفين .

وجهزت « صالونات » فى كثير من الدور الكبيرة الخاصة فى القاهرة يتطارح فيها زوارها مثل هذه الأفكار ويعملون بعد ذلك على نشرها فى الشباب وفى مختلف الأوساط

رد الفعل

كان لهذه الموجة رد فعل قوى فى الأوساط الخاصة المعنية بهذه الشئون كالأزهر وبعض الدوائر الإسلامية ، ولكن جمهرة الشعب حينذاك كانت إما من الشباب المثقف وهو معجب بما يسمع من هذه الألوان ، وإما من العامة الذين انصرفوا عن التفكير فى هذه الشئون لقلة المنبهين والموجهين ، وكنت متألماً لهذا أشد الألم ، فها أنذا أرى أن الأمة المصرية العزيزة تتأرجح حياتها الاجتماعية بين إسلامها الغالى العزيز ، الذى ورثته وحمته ، وألفته وعاشت به واعتزبها أربعة عشر قرنا كاملة ، وبين هذا الغزو الغربى العنيف المسلح المجهز بكل الأسلحة الماضية الفتاكة من المال والجاه ، والمظهر والمتعة والقوة ووسائل الدعاية .

وكان ينفس عن نفسى بعض الشىء الإفضاء بهذا الشعور إلى كثير من الأصدقاء الخلصاء من زملائنا الطلاب بدار العلوم والأزهر والمعاهد الأخرى ، فكان الشيخ حامد عسكرية رحمه الله ، وكان الشيخ حسن عبد الحميد ، وحسن افندى فضلية ، وأحمد افندى أمين ، والشيخ محمد بشر ، ومحمد سليم عطية ، ثم كمال افندى اللبان ، رحمه الله — وقد كان طالباً بالحقوق حينذاك — ويوسف افندى اللبان ، وعبد الفتاح كيرشاه ، وإبراهيم افندى مدكور . وسيد افندى نصار حجازى . والأخ محمد افندى الشرنوبى ، والإخوان المثقفون من الإخوان الحصافية بالقاهرة . . . كان هؤلاء جميعاً يتحدثون فى هذه الموضوعات ، وفى وجوب القيام بعمل إسلامى مضاد ، وكنا نجد فى ذلك ترويحا عن النفس ، وتسلية عن هذا الهم !

كما كان ينفس عن نفسى كذلك التردد على المكتبة السلفية ، وكانت إذ ذاك قرب محكمة الاستئناف ، حيث نلقى الرجل المؤمن المجاهد العامل القوى العالم الفاضل والصحفى

الإسلامى القدير : (السيد محب الدين الخطيب) ، ونلتقى بجمهرة من أعلام الفضلاء المعروفين بغيرتهم الإسلامية وحميتهم الدينية ، أمثال فضيلة الأستاذ الكبير السيد محمد الخضر حسين ، والأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، وأحمد باشا تيمور رحمه الله ، وعبدالعزيز باشا محمد رحمه الله — وكان إذ ذاك مستشاراً بمحكمة الاستئناف — ونسمع منهم بعض ماينفس عن النفس . كما كنا نتردد على دار العلوم ونحضر فى بعض مجالس الأستاذ السيد رشيد رضا رحمه الله ؛ ونلتقى فيها الكثير من الأعلام والفضلاء كذلك ، أمثال الشيخ عبد العزيز الخولى رحمه الله ، وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد العدوى ، فنتذاكر هذه الشئون أيضاً ؛ وكانت للسيد رشيد رحمه الله جولات قوية موفقة فى رد هذا الكيد عن الإسلام .



عمل إيجابى

ولكن هذا القدر لم يكن يكفى ولايشفى ، وخصوصاً وقد اشتد التيار فعلا ؛ وصرت أرقب هذين المعسكرين فأجد معسكر الإباحية والتحلل فى قوة وفتوة ، ومعسكر الإسلامية الفاضلة فى تنقص وانكماش ؛ واشتد بى القلق حتى إنى لأذكر أننى قضيت نحواً من نصف رمضان هذا العام فى حالة أرق شديد لايجد النوم إلى جفنى سبيلا من شدة القلق والتفكير فى هذه الحال ؛ فاعتزمت أمراً إيجابياً وقلت فى نفسى : لماذا لا أحمل هؤلاء القادة من المسلمين هذه التبعة ، وأدعوهم فى قوة إلى أن يتكاتفوا على صد هذا التيار ؟ ، فإن استجابوا فذاك وإلا كان لنا شأن آخر » . وصح العزم على هذا وبدأت التنفيذ .

مع فضيلة الشيخ الدجوى

وكنت أقرأ للشيخ يوسف الدجوى — رحمه الله — كثيراً . وكان الرجل سمح الخلق حلو الحديث صافى الروح . وبحكم النشأة الصوفية كانت بينى وبينه رحمه الله صلة روحية وعلمية تحملنى على زيارته الفينة بعد الفينة ، بمنزله بقصر الشوق أو بعطفة الدويدارى بحى الأزهر ، وكنت أعرف أن له صلات بكثير من رجال المعسكر الإسلامى من علماء أو وجهاء ، وأعرف أنهم يحبونه ويقدرونه . فعزمت على زيارته ومكاشفته بما فى نفسى ، والاستعانة به على تحقيق هذه الفكرة والوصول إلى هذه الغاية . وزرته بعد الإفطار ؛ وكان حوله لفيف من العلماء وبعض الوجهاء ، ومن بينهم فاضل لاأزال أذكر أن اسمه « أحمد بك كامل » وإن لم ألتق به بعد هذه المرة .

تحدثت إلى الشيخ فى الأمر فأظهر الألم والأسف وأخذ يعدد مظاهر الداء والآثار السيئة المترتبة على انتشار هذه الظاهرة فى الأمة ، وخلص من ذلك إلى ضعف المعسكر الإسلامى أمام هؤلاء المتآمرين عليه ، وكيف أن الأزهر حاول كثيراً أن يصد هذا التيار فلم يستطع ، وتطرق الحديث إلى جمعية (نهضة الإسلام) التى ألفها الشيخ ، هو ولفيف من العلماء ، ومع ذلك لم تجد شيئاً ، وإلى كفاح الأزهر ضد المبشرين والملحدين ، وإلى مؤتمر الأديان فى اليابان ، ورسائل الإسلام التى ألفها فضيلته وبعث بها إليه ، وانتهى ذلك كله إلى أنه لافائدة من كل الجهود ، وحسب الإنسان أن يعمل لنفسه وأن ينجو بها من هذا البلاء . وأذكر أنه تمثل بهذا البيت ، الذى كان كثيراً مايتمثل به ، والذى كتبه لى فى بعض بطاقاته فى بعض المناسبات :

وما أبالى إذا نفسى تطاوعنى على النجاة بمن قد مات أو هلكا

وأوصانى أن أعمل بقدر الاستطاعة وأدع النتائج لله : « لايكلف الله نفساً إلا وسعها » .

لم يعجبنى طبعا هذا القول ؛ وأخذتنى فورة الحماسة ، وتمثل أمامى شبح الإخفاق المرعب إذا كان هذا الجواب سيكون جواب كل من ألتى من هؤلاء القادة . فقلت له فى قوة : « إننى أخالفك ياسيدى كل المخالفة ، فى هذا الذى تقول ، وأعتقد أن الأمر لايعدو أن يكون ضعفا فقط ، وقعوداً عن العمل ، وهروبا من التبعات . من أى شىء تخافون ؟ من الحكومة أو الأزهر ؟ ... يكفيكم معاشكم واقعدوا فى بيوتكم واعملوا للاسلام ، فالشعب معكم فى الحقيقة لو واجهتموه لأنه شعب مسلم ، وقد عرفته فى القهاوى ، وفى المساجد ، وفى الشوارع ، فرأيته يفيض إيماناً ؛ ولكنه قوة مهملة من هؤلاء الملحدين والإباحيين ، وجرائدهم ومجلاتهم لاقيام لها إلا فى غفلتكم ، ولو تنبهتم لدخلوا جحورهم . يا أستاذ ! إن لم تريدوا أن تعملوا لله فاعملوا للدنيا وللرغيف الذى تأكلون ، فإنه إذا ضاع الإسلام فى هذه الأمة ضاع الأزهر ، وضاع العلماء ، فلا تجدون ماتأكلون ، ولاماتنفقون ؛ فدافعوا عن كيانكم إن لم تدافعوا عن كيان الإسلام . واعملوا للدنيا إن لم تريدوا أن تعملوا للاخرة ، وإلا فقد ضاعت دنياكم وآخرتكم على السواء » . .

وكنت أتكلم فى حماسة وتأثر وشدة ، من قلب محترق مكلوم ؛ فانبرى بعض العلماء الجالسين يرد على فى قسوة كذلك ، ويتهمنى بأننى أسأت إلى الشيخ وخاطبته بمالايليق ، وأسأت إلى العلماء والأزهر ، وأسأت بذلك إلى الإسلام القوى العزيز ، والإسلام لايضعف أبداً والله تكفل بنصره .

وقبل أن أرد عليه انبرى أحمد بك كامل هذا وقال : « لا يا أستاذ ، من فضلك هذا الشباب عنده حق ، ويجب أن تنهضوا ؛ وإلى متى هذا القعود ، وهذا الشاب لايريد منكم إلا الاجتماع لنصرة الإسلام . وإن كنتم تريدون مكاناً تجتمعون فيه فهذه دارى تحت تصرفكم افعلوا بها ماتريدون ، وإن كنتم تريدون مالاً فلن نعدم المحسنين من المسلمين . ولكن أنتم القادة فسيروا ونحن وراءكم ، أما هذه الحجج فلم تعد تنفع بشىء » . هنا سألت جارى عن هذا الرجل المؤمن : من هو ؟ فذكر لى اسمه . ومازال عالقاً بذهنى ولم أره بعد . وانقسم المجلس إلى فريقين فريق يؤيد رأى الأستاذ العالم وفريق يؤيد رأى أحمد بك كامل ، والشيخ رحمه الله ساكت . ثم بدا له أن ينهى هذا الأمر فقال : على كل حال نسأل الله أن يوفقنا للعمل بما يرضيه . ولاشك أن المقاصد كلها متجهة إلى العمل ، والأمور بيد الله . وأظننا الآن على موعد مع الشيخ محمد سعد فهيا لنزوره .

وانتقلنا جميعا إلى منزل الشيخ محمد سعد وهو قريب من منزل الدجوى رحمه الله وتحريت أن يكون مجلسى بجوار الشيخ الدجوى مباشرة لأستطيع الحديث فيما أريد . ودعا الشيخ محمد سعد بحلويات رمضان فقدمت وتقدم الشيخ ليأكل فدنوت منه فلما شعر بى بجواره سأل : من هذا ؟ فقلت : فلان . فقال : أنت جئت معنا أيضاً ؟ فقلت : نعم ياسيدى وسوف لا أفارقكم إلا إذا انتهينا إلى أمر . فأخذ بيده مجموعة من النقل وناولنيها وقال : خذ وإن شاء الله نفكر ، فقلت : ياسبحان الله ياسيدى ! إن الأمر لايحتمل تفكيراً ، ولكن يتطلب عملا ، ولو كانت رغبتى فى هذا النقل وأمثاله لاستطعت أن أشترى بقرش وأظل فى منزلى ، ولا أتكلف مشقة زيارتكم . ياسيدى إن الإسلام يحارَب هذه الحرب العنيفة القاسية ، ورجاله وحماته وأئمة المسلمين يقضون الأوقات غارقين فى هذا النعيم ! أتظنون أن الله لايحاسبكم على هذا الذى تصنعون ؟ إن كنتم تعلمون للاسلام أئمة غيركم وحملة غيركم فدلونى عليهم لأذهب اليهم ؛ لعلى أجد عندهم ماليس عندكم !! وسادت لحظة صمت عجيبة ؛ وفاضت عينا الشيخ رحمه الله بدمع غزير بلل لحيته ، وبكى بعض من حضر . وقطع الشيخ رحمه الله هذا الصمت بأن قال فى حزن عميق وفى تأثر بالغ : وماذا أصنع يافلان ؟ فقلت : ياسيدى الأمر يسير ، ولايكلف الله نفساً إلا وسعها . لا أريد إلا أن تحصر أسماء من نتوسم فيهم الغيرة على الدين من ذوى العلم والوجاهة والمنزلة ؛ ليفكروا فيما يجب أن يعملوه : يصدرون ولو مجلة أسبوعية أمام جرائد الإلحاد والاباحية ، ويكتبون ردوداً وكتباً على هذه

الـكتب ، ويؤلفون جمعيات يأوى إليها الشباب ، وينشطون حركة الوعظ والإرشاد . . . وهكذا من هذه الأعمال . فقال : جميل . وأمر برفع (الصينية) بما عليها ، وإحضار ورقة وقلم . وقال : اكتب . وأخذنا نتذاكر الأسماء ، فـكتبنا فريقاً كبيراً من العلماء الأجلاء أذكر منهم : الشيخ رحمه الله ، وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين ، والشيخ عبد العزيز جاويش ، والشيخ عبد الوهاب النجار ، والشيخ محمد الخضرى ، والشيخ محمد أحمد إبراهيم ، والشيخ عبد العزيز الخولى رحمهم الله .

وجاء اسم السيد محمد رشيد رضا ، رحمه الله . فقال الشيخ : اكتبوه اكتبوه فإن الأمر ليس أمراً فرعياً نختلف فيه ، ولـكنه أمر إسلام وكفر والشيخ رشيد خير من يدافع بقلمه وعلمه ومجلته . وكانت هذه شهادة طيبة من الشيخ للسيد رشيد ، رحمهما الله ، مع ما كان بينهما من خلاف فى الرأى حول بعض الشئون . وكان من الوجهاء : أحمد باشا تيمور ، ونسيم باشا ، وأبو بكر يحيى باشا ، ومتولى بك غنيم ، وعبد العزيز بك محمد — وهو عبد العزيز باشا محمد الآن — وعبد الحميد بك سعيد رحمهم الله جميعاً ، وكثيرون غير هؤلاء .

ثم قال الشيخ : وإذن فعليك أن تمر على من تعرف ، وأمر على من أعرف ، ونلتقى بعد أسبوع إن شاء الله .

التقينا مرات ، وتـكونت نواة طيبة من هؤلاء الفضلاء ، وواصلت اجتماعها بعد عيد الفطر ، وأعقب ذلك أن ظهرت مجلة « الفتح » الإسلامية القوية ، يرأس تحريرها الشيخ عبد الباقى سرور نعيم رحمه الله ، ومديرها السيد محب الدين الخطيب ، ثم آل تحريرها وإدارتها إليه ، فنهض بها خير نهوض ، وكانت مشعل الهداية والنور لهذا الجيل من شباب الإسلام المثقف الغيور .

وظلت هذه النخبة المباركة من الفضلاء تعمل حتى بعد أن فارقتُ دار العلوم ، وظل يحركها نفر من هذا الشباب المخلص حتى كانت هذه الحركات « جمعية الشبان المسلمين » فيما بعد . . . »

آفة النصح

لك نصحى وما عليك جدالى آفة النصح أن يكون جدالا

شوقى

من أعظم حاجات هذه الأمة

لسماحة السيد أبي الحسن الندوى

وكيل ندوة العلماء بالهند

إن أخوف مايخاف على أمة ويعرضها لكل خطر ويجعلها فريسة للمنافقين ولعبة للعابثين هو فقدان الوعى فيها ، وافتتانها بكل دعوة واندفاعها إلى كل موجِّه ، وخضوعها لكل متسلط ، وسكوتها على كل فظيعة ، وأن لاتعقل الأمور ولاتضعها فى مواضعها ، ولاتميز بين الصديق والعدو ، وبين الناصح والغاش ، وأن تلدغ بجحر مرة بعد مرة ، ولاتنصحها الحوادث ولاتروعها التجارب ، ولاتنتفع بالكوارث ، ولاتزال تولى قيادتها من جربت عليه الغش والخديعة والخيانة والأثرة والأنانية ، ولاتزال تضع ثقتها فيه وتمكنه من نفسها وأموالها وأعراضها ومفاتيح ملكها وتنسى سريعاً مالاقت على يده من الخسائر والنكبات ، فيجترىء بذلك السياسيون المحترفون ، والقادة الخائنون ويأمنون سخط الأمة ومحاسبتها ، ويتمادون فى غيهم ويسترسلون فى خياناتهم وعبثهم ، ثقة ببلاهة الأمة وسذاجة الشعب ، وفقدان الوعى .

إن الشعوب الإسلامية والبلاد العربية مع الأسف ضعيفة الوعى — إذا تحرجنا أن نقول فاقدة الوعى — فهى لاتعرف صديقها من عدوها ولاتزال تعاملهما معاملة سواء ، أو تعامل العدو أحسن مما تعامل الصديق الناصح ، وقد يكون الصديق فى تعب وجهاد معها طول حياته بخلاف العدو ، ولاتزال تلدغ بجحر واحد ألف مرة ولاتعتبر بالحوادث والتجارب ، وهى ضعيفة الذاكرة سريعة النسيان ، تنسى ماضى الزعماء والقادة ، وتنسى الحوادث القريبة ، وهى ضعيفة فى الوعى الدينى والوعى الاجتماعى وأضعف فى الوعى السياسى ؛ وذلك ماجر عليها ويلاً عظيما وشقاء كبيراً وسلط عليها القيادة الزائفة وفضحها فى كل معركة .

وإن الأمم الأوربية — رغم إفلاسها فى الروح والأخلاق ، ورغم عيوبها الكثيرة التى بحثنا عنها فى كتابنا « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » قوية الوعى : الوعى المدنى والسياسى — قد بلغت سن الرشد فى السياسة ، وأصبحت تعرف نفعها من ضررها

وتميز بين الناصح والخادع ، وبين المخلص والمنافق ، وبين الكفء والعاجز ؛ فلا تولى قيادها إلا الأكفاء الأقوياء الأمناء ، ثم لاتوليهم أمورها إلا على حذر ، فإذا رأت منهم عجزا أو خيانة ، أورأت أنهم مثلوا دورهم وانتهوا من أمرهم ، استغنت عنهم وأبدلت بهم رجالا أقوى منهم وأعظم كفاءة ، وأجدر بالموقف ، ولم يمنعها من إقالتهم أو إقصائهم من الحكم ماضيهم الرائع وأعمالهم الجليلة وانتصارهم فى حرب أو نجاحهم فى قضية ؛ وبذلك أمنت السياسيين المحترفين والقيادة الضعيفة أو الخائنة ، وخوَّف ذلك الزعماء ورجال الحكم فكانوا حذرين ساهرين يخافون رقابة الأمة وعقابها وبطش الرأى العام .

فمن أعظم ماتخدم به هذه الأمة وتؤمَّن من الهازل والمآسى التى لاتكاد تنتهى هو إيجاد الوعى فى طبقاتها ودهمائها وتربية الجماهير العقلية والمدنية والسياسية ، ولايخفى أن الوعى غير فشوّ التعليم وزوال الأمية ، وإن كان العلم من أنجع وسائل هذا الوعى ، وليعرف الزعماء السياسيون والقادة أن الأمة التى يعوزها الوعى غير جديرة بالثقة ولاتبعث حالتها على الارتياح وإن أطرت الزعامة والزعماء وقدستهم ، فإنها مادامت ضعيفة فى الوعى عرضة لكل دعاية وتهريج ، وهى كريشة فى فلاة تلعب بها الرياح ، ولاتستقر فى مكان .

إن الإسلام مع أنه دين منزل من السماء وقائم على الوحى والنبوة قد اعتنى بإيجاد وعى خاص : هو الوعى الإسلامى الذى هو أكمل أنواع الوعى وأعمقها ، وقد كون فى أتباعه عقلية خاصة تختلف عن عقلية الجاهلية كل الاختلاف ، وهى عقلية ناضجة مختمرة شديدة الغيرة لاتقبل — على مرونتها واتساعها — مالايتفق مع مسلماتها وما آمنت به من عقائد ومبادىء ولا تسيغ جسما غريباً عنها .

ومن أمثلة هذا الوعى أن الصحابة رضى الله عنهم آمنوا بفضل الإسلام وصحبة النبى صلى الله عليه وسلم بأن الظلم قبيح وأنه جريمة دينية وخلقية ، وأنه لايحل لأحد ولايحل مع أحد ، وآمنوا بالعدل والشهادة بالقسط على القريب والبعيد ، وكفروا بالحمية الجاهلية والعصبية القومية والقبلية والعشائرية وعرفوا أنه لامحل فى الإسلام ولامسوغ لهذه العصبية العمياء ، وأن المسلم لابد أن يدور مع الحق ، كل ذلك عرفوه واعتقدوه وأحبوه حتى صار جزءاً من عقيدتهم وطبيعتهم وعقليتهم .

وإذا بهم يوماً من الأيام يسمعون النبى صلى الله عليه وسلم الذى « لاينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحى يوحى » يقول « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فلو كانوا

مضطربين فى عقليتهم أو عقيدتهم لسكنوا وأخذوا بهذا القول على مدلوله الجاهلى الذى عرفوه ونشئوا عليه ، ولـكن الـكلمة صدمت عقليتهم الإسلامية المؤمنة ونزلت عليها كالصاعقة وكانت مفاجأة شديدة لأنها صدرت من النبى صلى الله عليه وسلم الذى يبغض الظلم ويحرمه فى جميع أشكاله ، فتألمت عقليتهم وحارت فى فهمها ، فلايمنعهم إجلال النبى صلى الله عليه وسلم أن يراجعوه ويقولوا له : « ننصره مظلوماً فـكيف ننصره ظالماً ؟» ويفسر النبى صلى الله عليه وسلم ماقاله تفسيراً إسلامياً يتفق مع عقليتهم ونفسيتهم الإسلامية وهو أن معنى نصر الأخ الظالم هو كفه عن الظلم ، والأخذ على يده ؛ فيطمئنون .

وهذا مثال للوعى الإسلامى الذى أوجده الإسلام وأحكمه محمد عليه الصلاة والسلام حتى صعب على أهله الانفصال عنه إلا ببينة وعلى بصيرة .



ومن أمثلة هذه التربية أن النبى صلى الله عليه وسلم أمَّر على سرية أحد أصحابه وأوصى أصحابه بطاعة القائد ، وقد حدث أن هذا الأمير أغضبه شيء فى هذه الرحلة فأمر بالنارفأوقدت ، ثم أمرأصحابه باقتحامها فأبوا ، وقالوا إنما تبعنا النبى صلى الله عليه وسلم فراراً عن النار أفندخلها ؟! وماذاك إلا بإيمانهم بمبدأ «لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق » « وإنما الطاعة فى المعروف » ورسوخه فى قلوبهم ، وقد آمنوا بفضل الوعى الإسلامى والتربية الإسلامية بأنه لافضل لرئيس على مرءوس فى بيت المال ، وليس له أن يستأثر بأموال المسلمين ويخص نفسه بشيء من ذلك ، ورسخ ذلك فى أذهانهم ويصبح عقيدة وطبيعة فلا يمنعهم من أن يصدعوا بذلك هيبة ولا إجلال : يقوم عمر رضى الله عنه خطيبا وعليه حلة — والحلة ثوبان — فيقول أيها الناس ألا تسمعون ؟ فيقول سلمان رحمه الله لانسمع ! فيقول عمر ولم يا أبا عبد الله ؟ يقول إنك قسمت علينا ثوبا ثوبا وعليك حلّة ، فيقول لاتعجل يا أبا عبد الله ثم ينادى عبد الله فلا يجيبه أحد فيقول ياعبد الله ابن عمر ! فيقول لبيك يا أمير المؤمنين ! قال آلثوب الذى اتزرتُ فيه هو ثوبك ؟ قال اللهم نعم ، فيقول سلمان : الآن فقل نسمع .

وكانت نتيجة هذا الوعى الإسلامى والتربية الإسلامية أن المسلمين لم يحتملوا الحكم الأموى الملـكى إلا بمشقة وجهد وثارت الروح الإسلامية مراراً ضد هذا الحـكم وهذه الملوكية العربية وقاومتها مقاومة شديدة ، ولم يستقم للأمويين الحـكم حتى انقرض هذا الجيل الذى نشأ على المبادىء الإسلامية وأحب الخلافة ومنهاجها فى الحـكم .

بل ونتقدم خطوة ونقول : إنه لم يقم إصلاح ما ، ولا أى ثورة أوانقلاب فى المجتمع

إلا على أساس الوعى ، وتكوّن عقلية خاصة تناسب ذلك الإصلاح أو تلك الثورة ، ونضرب لذلك مثلا بالثورة الفرنسية — وإن كان ذكر الثورة الفرنسية مع الإسلام إساءة أدب معه — فقد كانت ثورة محدودة قاصرة لا تخلو من التهور ومن الطيش ، ولكنها تصلح — على علاتها — أن تكون دليلا لما نقول ، فقد عنى رجالها وقادتها — وفيهم كثير من الأدباء والمؤلفين وأهل المواهب والنبوغ ممن أُتوا البراعة والبلاغة والنفوذ فى المجتمع والآداب — عنى هؤلاء بإيجاد الوعى الخاص الذى تقوم عليه هذه الثورة فملأوا النفوس سخطاً على الأوضاع القائمة فى البلاد ، وكراهة للقائمين عليها ، والمدافعين عنها من رجال الحكم وحاشيتهم وأنصارهم ، وأحدثوا ثورة فى النفوس — ضد القيم الخلقية ومفاهيمها القديمة وضد النظام السياسى — قبل أن يحدثوها فى الخارج حتى أصبح الحكم الشخصى غير محتمل وأصبح لا يطاق ، وأصبحت كلمات « الحرية ، الإخاء ، المساواة » كلمات حبيبة مقدسة يتغنى بها كل فرنسى ويدين بها ، وهنا اندفعت هذه الثورة وانفجر بركانها وانهار صرح المجتمع القديم ، وكان ما أراد قادة هذه الثورة ، وإن لم يحسنوا الانتفاع بهذا الانقلاب وتوجيهه واستعماله فى صالح الإنسانية لأن الهدم أيسر من البناء ، والبناء يتطلب أشياء كثيرة لم يكن قادة هذه الحركة يملكونها ، بل ولا يعرفونها .

وعلى كل فقد شاهد العالم قوة الوعى وانفجاره ، وعرف كيف يقهر الوعى — إذا حصل فى أمة — القوى الجبارة ، ويدك الصروح المشيدة .

إن الذى يمسك أوربا اليوم — رغم العلل الكثيرة التى لا تعيش معها أمة ولا يبقى معها ملك — هو الوعى المدنى والسياسى فلا ترى فى الأمم الكبيرة — كالإنجليز والأمريكان مثلا — من يخون أمته ويبيع بلاده بثمن بخس دراهم معدودة ، وحتى من يفشى أسرار الدولة — من الوزراء والمسئولين — أو من يتهم بشراء الأسلحة الفاسدة إلا النادر الذى هو فى حكم المعدوم . إن الفساد الخلقى الذى استشرى فى أوربا ، والذى نتحدث به فى كتبنا ومقالاتنا هو منحصر فى الدائرة الشخصية أو فى مصلحة الأمة والبلاد ، ولا مسوغ له فى الإسلام أبداً ؛ بل هو فى نظره جريمة كبرى وحمية جاهلية ؛ ولكنه سائغ ومحمود فى شريعة أوربا الخلقية والسياسية .

أما الشعوب الإسلامية فلا يستغرب من قادتها وولاة الأمر فيها أن يرهن بعضهم بلاده يوماً فى سبيل شهوة أو طمع ، وأن يبيع أمته كالغنم والخراف ، وأن يحشر أمته إلى ميدان حرب لا تتحمس للقتال فيه ولا تستحله — ككوريا مثلا — أو يجازف بمقدساته ودينه وحرية بلاده وكرامتها فى سبيل مصلحة مالية أو شهوة بدنية ، وأغرب من هذا كله ، وأدعى للعجب أن الأمة تطيع هؤلاء فى جميع تصرفاتهم ، بل تهتف

بحياتهم ، وتسير فى ركابهم وتسبح لهم بكرة وعشيا ، إن دل هذا على شيء فإنه يدل على فقدان الوعى ، وموت الضمير ، وخوائه ، وإفلاس فى العقل والخلق .

إنه لايزال فى الشرق الإسلامى شعوب وجماهير تمتص دماؤها ويحلب ضرعها ويجز صوفها ، ويُعبث بأموالها فى سبيل الشهوات والبهيمية النازلة ويجهّل أبناؤها ويجوّع شبانها ، ويعامل أفرادها معاملة الدواب ، ثم تسكت على كل هذا ، بل تمهد لهم السبيل وتتغنى بمدائحهم .

ولا يزال فى الشرق الإسلامى جماعات مسلمة يعصَى الله فى أرضها وتؤتى المنكرات والموبقات ويداس الشرع الإسلامى وتهان شعائره ويتعدى حدود الله ، ثم لايحرك ذلك منها ساكنا ، ولايؤرق قلباً .

إن كل ذلك نتيجة فقدان الغيرة الإنسانية والحمية الإسلامية .

إنه لا قيمة لانقلاب وثورة — مهما كانت فى صالح الأمة — إذا لم يكن دافعها عقيدة متينة وفكرة راسخة ولم يصحبها وعى عاقل رشيد ، إنه لاعبرة بجلاء ملك أو سقوط دولة أو وزارة إذا لم يكن الرأى العام متهيئاً لذلك ، وإذا لم تكن الأمة مصممة على إجلاء هذا الملك والتخلص من هذه الدولة أو الوزارة أو إقصاء هذا الوزير أو الموظف الذى جربت عليه خيانة أو جريمة ، ولم يكن ذلك على بصيرة وفهم ووعى . فإذا لم يكن الرأى العام متهيئا لهذا الانقلاب ، وإذا لم تكن هذه الأمة مصممة على التخلص من هذه الأوضاع الفاسدة أوشك أن تعود هذه الأوضاع أو يعود أولئك الرجال من حيث تشعر هذه الأمة ومن حيث لا تشعر ؛ وكم كان ذلك فى التاريخ .

إذن فمن أعظم حاجات هذه الأمة ، وما يجب أن يعنى به قادتها وزعماؤها ورجال الإصلاح والتربية هو إيجاد الوعى وتكوين العقلية الصحيحة وإيقاظ الضمير وبعث الشعور الدينى والمدنى والسياسى حتى تصبح تميز بين أصدقائها وأعدائها ، وما يصلحها وما يفسدها ، وتعرف متى ترضى ومتى تغضب ، وتقدر أن تعطى وأن تسلب ، وتستطيع أن تحاسب وأن تعاقب ، وأن تولى وأن تعزل ، لا يفلت المجرم من سخطها وعقوبتها ، ولا يحرم المخلص من شكرها وتقديرها ، هنالك لايستطيع أحد أن يعبث بأموالها ويستأثر بمواردها ، أو يستهتر فى بلادها ، أو يضحك عليها ، أو يصفعها ، أو يرزأها فى شرفها وأعراضها وكرامتها ؛ لأنها أمة واعية مستيقظة ساهرة قد بلغت سن الرشد واستكملت الرجولة والعقل .

إن الأمة لفى خطر دائم — مهما كانت مظاهرها الدينية وعواطفها الثائرة — مالم يوجد فيها الوعى الصحيح ؛ فليعتن بإيجاد هذا الوعى كل من يحرص على صلاح هذه الأمة وسعادتها ، وليجعل ذلك فى مقدمة ما يجاهد فى سبيله ؟

ميراث من المشكلات!

لأبي نعمان المهاجر

مسكينة هذه الأجيال الإسلامية الراهنة التى كُتِبَ عليها أن تأتى فى هذه الفترة الانتقالية بين ماضى الإسلام ومستقبله ، وبين حضارته وحضارة العصر الحديث ؛ ذاك لأن عليها أن تنجح فى التوفيق بين طبيعة الماضى والحاضر ، وفى خلق الانسجام بين الروح الإسلامية والتيارات العلمية العصرية ، وعليها قبل ذلك عبء من أشد الأعباء خطرا هو أن تستطيع الاحتفاظ لنفسها ببصيرة النقد الصحيح أثناء الموازنة بين تراثها الضائع المغمور الذى نسيته الأيام ، وتراث العصر الحديث الذى يأخذ بألبابنا ويستولى على أسماعنا وأبصارنا صباح مساء !

وإنما كان هذا عبئاً ثقيلاً خطيراً لأن حجة الماضى الضائع المهزوم حجة ضائعة مهزومة فى نظر النفوس الضعيفة المائعة ، وحجة الحاضر الظافر قائمة إلى جانبه منتصرة ظافرة ، وهذا هو الخطر الماحق الساحق ، ذلك لأن الحضارة الغربية التى غلبت المسلمين على أمرهم فى عهدهم الراهن لم ينحصر شرها ووبالها فى التسلط على حاضر المسلمين وقهرهم واستعبادهم ، وفرض الشقاء عليهم ؛ وإنما امتد ذلك الوبال أو الشر إلى ماضيهم فأعلن عليه الحرب وسدد إليه المكايد ، وأجلب عليه بعلومه ومخترعاته ، وبمدارسه وكنائسه ، ومؤلفاته وصحفه ، ومبشريه ومستعمريه ، حتى استطاع أن يبث الشك فى نفوس الأجيال الإسلامية الناشئة عن قيمته وصلاحيته لعلاج مشاكلهم الراهنة وبناء حياتهم المستقبلة ، فأصبحنا نرى قادة المسلمين اليوم يبحثون عن كل وسيلة من وسائل الإنقاذ لشعوبهم مما هى فيه ، فيذهبون إلى الغرب والشرق ، ويناشدون كل من هب ودب ، ويستجدون الإصلاح من المفسدين ، والرشاد من المضلين ، ويستجيرون من الرمضاء بالنار ، ويشكون إلى الطامعين فيهم شكوى الجريح إلى الغربان والرخم ، ثم لايخطر ببالهم فى أثناء هذا البحث الملح أن يرجعوا إلى أنفسهم وإلى ماخلّفه ماضيهم، وإلى ما اختصتهم رحمة الله به من شريعة خالدة تصلح أمر دينهم ودنياهم ، كأن ذلك الحدث الضخم الذى شغل الدنيا كلها مئات السنين ، وغير فيها وبدل ، وصنع لها الحضارات إن هو إلا حدث تافه صغير لايستحق الاهتمام ، ولا يستلفت النظر ، ولا يقتضى مناحق مجرد البحث والتساؤل والتجربة .

* * *

لقد كان على قادة المسلمين أن يتصوروا مشاكلهم بأعين بصيرة ، وأن يلتمسوا لها العلاج بإرادة مصممة حرة ؛ فإن أمامهم ميراثا ثقيلا من القيود والأغلال يجب أن يتحطم ويزول .

إن الوثبة الإسلامية الأولى التى اكتسحت شطر العالم فى وقت قصير ، والتى خلقت مجد الإسلام وعلمت الإنسانية مثلها العالية قد خلفت بعدها عصورا من التأخر والتقهقر والانحطاط ، تسلمنا عنها الإسلام مشوها ممسوخا ، وتسلمنا تأريخ أسلافنا فى تلك العصور المتأخرة ، فلم نجد فيه مايشفى الغلة ويعالج العلة ، ويقوم فى وجه المشاكل الحاضرة ، وتسلمنا حطام تلك العصور فى أنفسنا وفى طباعنا وفى أجيالنا : خورا فى العزائم ، وفسادا فى الأخلاق ، وخرابا فى الذمم ، وشتاتاً فى كل جماعة ، وفرقة فى كل شعب ، ونزاعا على كل قضية ، وانبعثت الأهواء المقنعة والأغراض المتسترة ، والشهوات المنافقة ، تزيف المبادىء وتؤلف الأحزاب ، وتنشىء الصحف ، وتبنى الحكومات وتهدمها ، وتقيم الدنيا وتقعدها ؛ وهى فى كل ذلك تضلل الشعوب البريئة ، وتخادع الجماهير الساذجة !

تسلمنا عنها شعوبا مبعثرة ممزقة ، وأوطانا محتلة ، وحقوقا مغتصبة ، وملايين من البشر مستعبدة مقيدة ، يساوم فيها من لا يملكها ، ويشتريها من لا يرحمها ، ويبيعها من لا يعطيها من ثمنها شروى نقير !

تسلمنا عنها أجيالا حائرة عمياء ، يعلمها الدجالون ، ويربيها المضللون ، ويحكمها الجبارون ، ويطعمها الجزارون ، تدافع عن حماها الذئاب ، وتداوى جراحها الحراب ، وهى فى كل ذلك صابرة خانعة ، تتبع كل ناعق ولو ذهب بها إلى داهية ، وتسير مع كل ريح وإن هبت بها إلى هاوية .

تسلمنا عنها قضايا متعددة ، ومشاكل معقدة ، وجراحاً مزمنة ، وأمراضاً متوطنة ، ورقابا مرتهنة ، تخنقها قبضة الاستعمار البغيض ، وتمتصها شهوة الاستغلال الفظيع ؛ فهى بينهما كمزعة من لحم بين شقى مقراض لا تدرى أيهما أشد عليها نكالا ، وأقطع وبالاً ، وأسرع إيغالاً . !

تسلمنا كل هذا ، وما هو أكثر من هذا ، قاسينا كل هذه التجارب ، وذقنا كل هذه الويلات ، وتجرعنا كل هذا البلاء فما أرشدنا ذلك من ضلال ، وما بلغنا إلى حق ، ولا ردنا إلى نهج مستقيم ؛ كأنما يعنينا الله سبحانه وتعالى بقوله : « ولقد أخذناهم

بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ، حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون » .

وتسلمنا عنها مجموعة هائلة من الخرافات والأضاليل دسها أعداء الإسلام عليه ، فحشوا بها المؤلفات وغشوا بها العقائد ، وضللوا بها الجماهير ، وشوهوا بها روح الإسلام ، وقضوا على ما فيه من أسباب القوة ؛ فصار الإسلام غير ما كان ، وأصبح المسلمون به غير من كانوا ، وبذلك قامت فى وجوه المصلحين معضلة كبرى يصعب التغلب عليها ، لأنهم إذا أرادوا أن يحملوا الجماهير على جوهر الدين الصحيح ، لم تتحمل ذلك منهم ولم تقبله لأن الدين عندها مجموعة تلك الرواسب الاعتقادية التى خلفتها عصور الانحطاط ، فلم تعد تفهم من جهاد المصلحين وكفاح المجددين إلا أنه هدم للاسلام وتحريف فيه وافتيات عليه . . . !

ومما يضاعف محنة الإسلام ويمد فى عمرها أن كثيرا من القوى التى تملك التصرف بمصائر الشعوب الإسلامية لا تكاد تطيق الإسلام إلا إذا بقى على النحو الذى تفهمه الجماهير : مخدرا للأعصاب . ومنوما للعزائم ، وأغلالا تصفد به العقول والقلوب ، وأفيونا تقتل به الأمم والشعوب ، فإذا ما رأوا أن الإسلام قد يتحول على أيدى رجاله الأبرار إلى قوة حقيقية ارتاعوا منه وحاربوه ، وأظهروا من الشجاعة ما لو أظهروه فى ميادين الكفاح المقدس لما غلبهم غالب ، ولا افتات على حقهم غاصب .!



عجبت لمن له حدٌّ وقَدٌّ ويَنبو نَبوة القَضِم الكَهامِ
ولم أرَ فى عيوبِ الناسِ شيئاً كنقصِ القادرين على التمامِ

وحدة الدين والحياة

لمعالى الأستاذ الدكتور اشتياق حسين قرشى
وزير الباكستان لشئون الدعاية
نقلها إلى العربية الأستاذ سالم على سالم

الإسلام خلاصة الأديان جميعا :

خلق الله فى الإنسان عقلا تواقا لاكتناه مافوق الوجود المادى ، ولولا هذه الصفة فيه لما كان هناك فارق كبير بينه وبين عقلية الحيوان . ويضع الإنسان نصب عينيه مثلا أعلى يسعى إليه ، وما الذين يصفهم القرآن بأنهم تائهون « فى الظلمات » إلا أولئك الذين يصدفون عن المثل العليا . والعلاقة بين الفكر والعمل ثابتة مقررة ، ولذلك فإنه من الخير أن نقف بين آن وآخر لنتساءل إن كنا نفقه الفكرة التى جعلنا منها مثلنا الأعلى .

إن من الضرورى حتى نفهم الفكرة الإسلامية أن نعرف الظروف التى اكتنفت الدعوة إليها أول مرة . لقد كانت الجاهلية من أحط ماعرف فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، إذ كان الناس فيها منغمسين فى الرذيلة : يقترفون الوأد والقتل والغزو والميسر والنهب وغير ذلك من الرذائل والنقائص . ولقد سجل المؤرخون وصفا صادقا للمجتمع كما ألفاه محمد صلى الله عليه وسلم ، يعززه بقايا الشعر العربى الذى أثر عن تلك الفترة ؛ إذ يصف على العموم مواقف لغراميات مفحشة ، أو يصور مغامرات وحشية ضارية .

إلى هذه البلاد ، وفى هذه الظروف ، بعث رسول الله يدعو إلى طريق الحياة الجديدة . لقد كان أميا ، وكانت نشأته ثورة على أفكار المجتمع العربى تحرر فيها من تأثير المحيط ، ولذلك كان تفكيره حين البعثة مستقلا عن مأثور الكتابات السالفة . إنه لم يكن له أن يبدأ بأفكار سابقة ، بل كان عليه أن يعالج مشكلات المجتمع بتفكير جديد . إن آدميا وحيدا بمفرده لم يكن ليستطيع إصلاح جماعة بلغت هذا الشأو من الفساد ، غير أن الله برحمته العظمى ورأفته بالناس أظهر الحق فى رسوله فاختاره ليكون وسيلة لإظهار معجزته لافى إصلاح العرب حتى يكونوا رواد الحضارة

الإنسانية وحسب ، بل لوضع الشريعة الخالدة للحياة التقدمية السليمة .

إن هذه المعجزة الكبرى لم تتحقق بنبذ الحقائق التى سبقتها بل بتركيزها ، إذ ليس الاسلام ديناً جديداً ، وماتعاليمه إلا جماع رسالات الأنبياء فى كل زمان ومكان ؛ والإسلام إنما أحال الشكل العارض المخصوص للحكمة الدينية إلى فكرة عامة خالدة ، فليس فى الإسلام دعوة إلى هجر الحقائق السالفة ، بل تذكرة بوجوب تجريدها من الشوائب التى شوهها بها خيال الإنسان وهواه وقصور إدراكه . لقد كان محمد خاتم النبيين ولم يكن الإسلام أحدث الأديان ، وإنها لقضية منطقية أن يوحّد النبى الأخير الأديان التى جاء بها النبيون قبله .

الإيمان بالله عند المسلم .

إن حجر الزاوية فى هذه الرسالة الإيمان الحى بالله ، ولقد شاع وصف الإسلام بأنه دين التوحيد ، غير أنه لم يعم الفهم بأن التوحيد يقتضى خضوعا كليا . إن الصلاة الشفهية لله الواحد الأحد لا تجزىء ؛ فإن عقيدة المسلم يجب أن تعنى أن ليس هناك رغبة أو رهبة تستطيع اختلابه لعبادة آلهة باطلة ، وهذه لا يفترض أن تكون أصناما نصبتها الأيدى البشرية فإنها لاتستهوى الأذهان الذكية . إن أخطر مايشرك بالله هو هوى النفس الخبيث ؛ وما عبادة الأوثان الحجرية أو المعدنية إلا مظاهر لخرافات الجهالة ؛ أما مطالب الضعف والرغائب فإنها قوى هائلة قد تنال نصيبا من ولائنا . والتوجه لله وحده لاشريك له هو فى الواقع التوحيد الحق ؛ فلا طموح ولا خوف ولا إغراء يستطيع أن يفتننا عن التوجه الكامل لله رب العالمين .

إن هذا الخضوع التام لله تعالى لايشترط له ترك الحياة الدنيا ، فإن المسلم لايستطيع أن يكون « غير أرضى » ؛ ويجب ألا تكون نظرته إلى الدنيا نظرة ازدراء ؛ بل ربما كان احتقارها انتقاصا من احترام الخالق جل وعلا ؛ وقد خُلق الإنسان فيها فعليه أن يستفيد وسعه منها . ونهج الإسلام يفضى بالرجل إلى الاتزان الذى لا يغفل أية ناحية من نواحى الحياة ؛ واعتزال الناس نكسة يعمل الإسلام للبرء منها ؛ وربما كان القتر والنهم سواء بانحرافهما عن سواء الإسلام ؛ وكذلك فى الجهل الهلاك كما هو فى الانحطاط الروحى ، وعلى كل مسلم أن يهدف إلى بناء مجتمع يتمتع أفراده بصحة البدن وسلامة الحس ويقظة الروح حتى يقدم رجالا كالخليفة العظيم على ، الذى كان

متصوفا عظيما كما يقرر الصوفيون ، ومحاربا شجاعا كما يروى التاريخ ، وشاعراً فيلسوفا كما تدل آثاره ، ورجل دولة تلتمس مشورته ويحترم رأيه فى فجر الدولة الإسلامية .

المعنى النفسي فى الإسلام

إن هذه النظرة المتزنة إلى الحياة هى النتيجة المباشرة للمعنى النفسى الذى أوجدته فى المجتمع تعاليم الإسلام ، وذلك المعنى يبدو واضحا لا فى نمو الفرد وتطوره فحسب ، بل فى نظرته إلى العالم أيضاً ؛ فالغنى والقوة هنا تأخذان معنى جديدا ، فيه تكونان للانسان وسائل للعبادة أكثر منهما وسائل تنزع بالإنسانية إلى الخمول أو الاعتداد بالقوة والجاه والثروة ، وهذه الروح فى الإسلام هى التى تهيىء للاشتراكية ، لتجد فيه الغناء ، فنظم الوراثة فيه والزكاة — الجباية الإجبارية من رأس المال — وشعور المساواة العميق المتأصل ، ومثله العليا فى العبادة والمحبة والرحمة ، كل ذلك من شأنه العمل لإزالة الفوارق بين الناس سواء فى الاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد .

إن الإسلام لا يمكن أن يقارن بالرأسمالية فهو ينظر إليها بفزع شديد ، وكذلك يخالف الشيوعية لأنه لا يسيغ المادية الصماء . إن فى الإسلام تقديراً للقيم واحتراما لشخصية الفرد ؛ فلا يجيز الفكرة التى ترى الإنسان قطعة آلية فى الجهاز الاقتصادى لأنه لا يغفل أشواق الإنسان الروحية ومطالب مثله العليا ، كما أنه لا يجيز مجتمعاً يُستغل فيه أحد أو يستحكم فيه التفاوت بين الطبقات فيرفل بعضها فى النعيم ويهلك بعضها سغبا . إن الجوع وصمة شنيعة فى نظر الإسلام ، وهو إذ يدعو لتكافؤ الفرص والحد من تجمع الثروات — لأن من رسالته رفع الحاجة والشقاء — لا يقصر جهده على إشباع المعدة ، ولكنه يهيىء جميع حاجات الإنسان ، وهو يعتبر المساواة الاقتصادية والاجتماعية أساسا للحياة السعيدة ، وما الرخاء المادى فيه إلا القواعد التى عليها يقام بناء الشخصية الإنسانية .

واجب المسلم :

إن تكوّن الصفات والنوازع المختلفة التى تميز الشخصية فى الإنسان هى نتيجة وحدة الإرادة الحاصلة من التوجه الكلى لله ، لأن الإسلام ليس صلاة شفهية وحسب ؛ إنه خضوع تام إلى مصدر المثل العليا جميعاً ، وفيه وحدة مركزية بكل معنى الكلمة ، وجميع الأحاسيس والأعمال البشرية متعلق بعبادة الله ، وبذا تكون الحياة عبادة مستمرة لا تتوقف أبداً . هذه النظرة إلى الحياة تغير كنهها ؛ فصفات الأنانية

وحب السيطرة والتسخير والطمع كلها تزال كالخبث بهذه العاطفة المستغرقة . وهذا التطهير فى الخلق يغير نظرة المسلم إلى الدنيا ، فالملكية والوطنية والحدود الجغرافية والخصومات العامة ، كلها تبدو كاسفة أمام إشعاع الإسلام القوى . إن المسلم لا يعرف غير رباط واحد هو رباط الفكرة العامة ، وكل من يؤازره فى الصراع لإيجاد عالم أفضل فهو زميل فى المعركة . إنه يعرف منظمة واحدة فقط هى أمة الحق : قوم جعلوا رابطتهم فيما بينهم التوجه إلى الله لتخليص الدنيا من الظلم والتعصب والتفاوت بين البشر .

إن حياة المسلم يجب أن تكون جهاداً متواصلا ومحاولة لا تنى ، تعمل لنفى الفساد من الأرض ، وهذه الروح فى حياة المسلم قد شوهت بالدعاة الأدنياء المتحاملين على الإسلام وغيرهم ممن وقعوا فرائس أضاليلهم وأباطيلهم . إن الجهاد — كما قد يعلم المبتدىء — أقله الكلمة الطيبة وغايته الجود بالنفس فى حماية المبدأ ، ولن يعود الإسلام حياً حتى يتعلم أبناؤكم وبناتكم درس الجهاد ، ويكون كل منهم مشع نور ، يعيش حياة نقية طاهرة ، وكالكوكب السيار يرسل ضياءه لينير سبيل الحياة .

ليشعر كل مسلم بأنه ليس فرداً أعزل ، ولكنه مستودع حركة حية ، ويجب أن يكون نشاطه متسقا مع الإسلام لأن القدوة الحسنة أجدى من التعليم ، فإن لم يحمل هذا العبء بجد ، فهو قرحة فى جسم المجتمع وقد يكون سببا فى إدالته . إن المسلم حين يستقيم على تعاليم دينه فى حياته يكون قد قطع فى سعيه المرحلة الأولى ، والمرحلة الثانية بعد ذلك هى أن يعمل دون توقف للفكرة الإسلامية فى محيطه مهما كان محدوداً ، وليدع غيره ليتبعوا الحق ، وليدفعه للعمل فى مثابرة وصبر . إن المسلمين اليوم فقراء لا يكادون يملكون وسيلة لنشر الحق ؛ فليكن كل منهم ناشراً للفكرة الإسلامية فى المسلمين وغيرهم . وأخيراً يجب ألا نجد غضاضة فى قولنا : بأننا نؤمن أن من واجبنا تقديم أرواحنا فى هذا السعى حتى ننقذ مثلنا العليا من العفاء . إن الرغبة فى الحياة يعنيها نقيضها وهو العزم على الموت ، والذين يمكنهم أن يحيوا هم فقط أولئك الذين لا يضنون بأرواحهم ولا يغلون أثمانها . والذين لا يؤمنون بفاعلية الجهاد كضمان لحماية المبادىء الإسلامية يثبتون جهلهم بالحياة ، إذ الحياة سعى دائب ، وكيف يتسنى لأية فكرة أن تبقى دون سعى دائم من أولئك الذين يحملونها ؟ إنه يتحتم على المؤمن أحيانا أن يموت فى سبيل الذود عن مبادئه .

الإسلام وغير المسلمين

إن المؤمن بالله لا يمكن أن يستبيح لنفسه الطغيان مهما كان شكله ، والظلم والإسلام نقيضان لا يجتمعان ، إذ بدون الحرية التامة لا يعيش الإسلام . إن المثالية عبث إن لم تجد طريقها فى عالم الواقع ، وفكرة الإسلام لايبدو لها أثر فى القيود . وقد وضع الإسلام بعد كل ماتقدم طريقا للحياة تشمل جميع مظاهر نشاطنا ، وجميع نواحي حياتنا ، بل حتى جميع مشاعرنا وإحساساتنا . إن محيطنا يجب أن يكون له ضابط من أنفسنا ، وإلا ففكرتنا تذوى كالورقة الجافة ، فحتى نكون مسلمين يجب أن تكون بيدنا مقدراتنا ، وحينئذ فقط نستطيع أن نبنى مجتمعاً قائماً على تعاليم القرآن ، وعندها سنحرر الإنسانية من الحاجة والشقاء والتفاوت والطغيان . لا نريد أن نحقق فكرتنا فى غيرنا بالقهر لأن القرآن يعلمنا أن نحترم عقائد غيرنا . إن صحيفتنا ناصعة بالرغم من هذيان الكتاب المغرضين ؛ إذ قد سلكنا فى علاقاتنا بغيرنا مسلك السماحة والكرم ، وتاريخنا منزه عن الاضطهاد الدينى والمجازر البشرية ومحاكم التفتيش الدنسة والعمل على إبادة الأجناس الضعيفة . لقد كنا أول من شرع قوانين الدولة التى هيأت للرعايا الحرية التامة لاتباع الوجهة التى يتولونها فى الحياة ، وحبتهم بالحقوق المدنية وسائر الحريات . لقد فرضنا على أنفسنا القوانين الرحيمة فى الحروب حتى ولو ركب العدو الشطط . ولقد برئنا من التعصب لجنس أو لون ، ولم نحقر إنساناً لأصله ونسبه . لقد اتصلنا بأمم متأخرة فرفعناها إلى مستوانا ولم نبذل الجهد لحرمانها حتى من الحقوق الأولية للبشر . وحكومتنا لم تقم على الإفقار الاقتصادى للمحكومين أو تعطيل حضاراتهم ، أو حتى إتلاف ميزاتهم الحربية والسياسية .



هذه الحقائق يجب أن تقنع الدنيا أننا لم نزل نؤمن بالقيم ونحققها فى الأرض . . . القيم التى فقدت مكانها من العالم منذ خُذل الإسلام ، والتى لا يحققها غيره وغير المؤمنين به ! .

فى الإسلام القوة التى تصنع الأمة :

هل نحن بعد هذا سُبّة على وجه الأرض لا ينبغى لنا أن نعيش ؟ ألسنا محقين حين نطلب الحياة ؟ وهل نتعدى حقوقنا إذا رغبنا فى الحرية لتحقيق مثلنا العليا فى جزء من أرض الله الواسعة فننشر ما نعتقد بأنه هو رسالتنا الحقيقية لنكون الشعب

النموذجى للعالم ؟ إن مثلنا العليا من عقيدتنا ، لأنها مرتكزة على الإيمان بأن الله وحده لا سواه هو مصدر الخير والفضائل جميعاً .

إن عقيدة الخضوع التام لله وحده لا شريك له هى الدواء الوحيد للعلل المختلفة التى تعذب العالم . وسر هذا الولاء الكلى هو التوحيد الذى أوحى به إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبلغه إلى الناس .

هذا الولاء غير المجزأ يعبّر عنه بكلمة الإسلام — التسليم لله — وبهذا الفهم نستطيع أن نخطو إلى الأمام ؛ لأن لدينا القوة التى تصنع الأمة وتهيؤها لتكون رائد الفلاح والمجد والحق . . .

هل نحن مستعدون للبدء بالمسير ؟ هذه هى الفرصة المواتية ، فإن لم نتحرك الآن فقد لا نتحرك ثانية ! !



لهذا يبكى . . .

كان الربيع بن خيثم بالأهواز ومعه صاحب له ، فنظرت إليه امرأة فتعرضت له فدعته إلى نفسها ، فبكى الشيخ . فقال له صاحبه : ما يبكيك . قال : إنها لم يُطمعها فى شيخين مثلنا إلا أنها رأت شيوخاً قبلنا . . .

« الحلية »

سعر الفائدة والربا

للأستاذ محمود أبو السعود

مستشار بنك الدولة بالباكستان

مقدمة :

يحسن بنا في مستهل هذا البحث أن نتفق على مدلول الألفاظ التي نسوقها والتي تتردد على ألسنة الكثيرين ، فإذا وضح المعنى وتحدد سهل مناقشته وفهمه ؛ وسنحاول بمشيئة الله أن نستعرض الدور الذي تلعبه الفائدة Interest في النظام الرأسمالي الحاضر ، ثم نفسير كلمة الربا وعلينا أن نحكم بعد هذا : هل سعر الفائدة هو الربا أم شيء آخر ؟ وبالرغم من أننا نؤمن بالقرآن إيماناً يعلو على الجدل العلمي فسنحاول شرح حكمة التحريم مستعينين بالنظريات الاقتصادية الحديثة ، والتفسيرات الفقهية القديمة . نخلص بعد هذا إلى محاولة شرح النظام الاقتصادي الذي يجب أن يسود ويكون خلوا من الربا .

وقبل أن ندخل في الموضوع نلفت النظر إلى أنه موضوع شائك معقد ، علاوة على كونه موضوعا فنياً وعلمياً خالصا ؛ ولكننا سنجتهد بعون الله في تبسيطه متجنبين الاصطلاحات العلمية والنظريات الفقهية حتى يتسنى للقارىء العادي أن يفهم لب الموضوع ، كما نعتذر عما قد يعتور البحث من قصور أو غموض نتيجة للايجاز الذي سنلتزمه ؛ إذ البحث من التعقيد بحيث لا يمكن أن يستوفى في مثل هذه العجالة .

١ — الفائدة وسعرها في الاقتصاد الحديث :

الفائدة هي جزاء رأس المال المقترض أو المستثمر ، ورأس المال هو مجموع الجهود المبذولة في إنتاج سابق والمجمعة في شكل يسمح باستعمالها في إنتاج لاحق والمعروضة لمثل هذا الاستعمال . فالفرد الذي يدخر من إنتاجه حصة معينة في شكل يمكنه من استثمار ما يدخره (كالنقود مثلا) لإنتاج لاحق ، هذا الفرد يكوّن بادخاره رأس مال . وهو حين يعرض رأس ماله إنما ينتظر أجراً له نظير حرمانه الماضي من استمتاع حال بكل إنتاجه بغية استمتاع لاحق لجزاء رأسماله . وبعبارة أخرى قد حرم المنتج نفسه من إنفاق مقابل إنتاجه (وعادة يكون هذا الإنفاق منصباً على استهلاك السلع والخدمات) بغية استثمار مدخراته في المستقبل استثمارا يفيء عليه جزاء ينفقه (عادة في استهلاك سلع وخدمات) .

ويقوم النظام الاقتصادى المعاصر على اعتبار رأس المال (بمعناه السابق) عنصراً أساسياً من عناصر الإنتاج . ولاشك أن رأس المال كان منذ الأزل عنصراً لاغنى عنه فى كل إنتاج . وليس هذا المعنى قاصراً على النظام الحاضر ؛ وإنما يتميز عصرنا الراهن فى هذه الناحية بالذات بالدور الذى يلعبه رأس المال والفائدة التى تستمد منه فى توزيع الدخل الأهلى ، وفى عمليات الإنتاج ذاتها من حيث النوع والكم . وقد بدأ هذا الأثر العميق واضحاً جلياً بازدياد حجم الصناعات الحديثة وانتشار نظام الإنتاج الكبير Large Scale Production أما الأثر لرأس المال وما يدره من فائدة فى توزيع الدخل الأهلى فهذا مرده إلى تطورات تاريخية معروفة انعكست فيما يسمى حالياً عند الاشتراكيين بطبقة الرأسماليين ، وقد تضاعف هذا الأثر بعد الحرب العالمية الأولى حين ظهر الائتمان المختلق Created Credit وصارت النقود (وهى الشكل العام للقيم الرأسمالية) الورقية هى السائدة فى التداول ، وخضعت هذه النقود لإشراف الحكومات ، وعمدت هذه الحكومات إلى خلق النقود للحصول على سلع وخدمات لم تكن لتقدر على الحصول عليها دون الالتجاء إلى هذه الوسيلة ، ولقد تمادت الحكومات فى الثلاثين سنة الأخيرة فى خلق النقود ، وهذه فى ذاتها لا تعتبر رأس مال مالم تمثل جهوداً منتجة حسبما سبق بيانه ، حتى تأثرت رؤوس الأموال الحقيقية التى تبدو غالباً فى شكل نقود تأثراً جعلها تابعة للدولة وسياساتها النقدية وصار عرض رؤوس الأموال (وهو المنحنى الذى بتقابله مع منحنى الطلب يحدد سعر الفائدة أو جزاء رأس المال) متأثراً بالتالى بالسياسة النقدية إلى حد بعيد .

ولسنا فى معرض مناقشة السياسات النقدية ، ولكنا نحب أن يكون القارىء على بينة من قضية هامة عند الاقتصاديين الأحرار ؛ هى أن الفائدة ليست إلا جزاء لرأس المال وأن سعر الفائدة هو ذلك السعر الذى يتحدد كما تحدد سائر الأسعار (فى مجتمع رأسمالى حر) عن طريق العرض والطلب . وما دام رأس المال حسبما عرفناه آنفا موجوداً فلا مناص من وجود فائدة ، فإذا انعدمت هذه لسبب من الأسباب وقف تكوين رؤوس الأموال الجديدة (لانعدام ثمرتها) كما تغير منحنى العرض وصار المالك لرأس المال زاهداً فى استثماره ، إذ لن يعود عليه هذا الاستثمار بالفائدة أو الثمرة المرجوة . نعم قد تصل الفائدة إلى حد ضئيل ، بل قد تصل (نظريا) إلى السلب كما أوضح الأستاذ كينز Kins ولكن ذلك لا يحدث عادة إلا لفترة قصيرة ثم يعود النشاط الاقتصادى إلى سابق عهده حيث يزداد الطلب على رؤوس الأموال (غالباً لاستثمار جديد) وبالتالى

يرتفع نتيجة له سعر الفائدة . وواضح أن سعر الفائدة يحدد أمراً له خطورته فى الاقتصاد الحر الراهن ؛ وهو مدى تفضيل الاستثمار الإنتاجى الراهن بالنسبة للاستثمار الإنتاجى الآجل . ولست أدعى أن طريق هذا التحديد هو الطريق الأمثل ، ولكنه على كل حال هو الطريق الوحيد المتبع أو الممكن اتباعه تحت الظروف الاقتصادية المرعية . والرأى السائد أنه لايمكن اتباع طريق آخر مالم تتغير الأسس الاقتصادية الرأسمالية .

نتيجة لهذا التحليل يبدو أن الفائدة أمر له مبرراته إذ لو سلمنا أن رأس المال ضرورى لكل إنتاج وعنصر أساسى فى كل نشاط اقتصادى ، وأن رأس المال لن يتكون مالم تكن له ثمرة وجزاء ، وأن الفائدة هى الجزاء الطبيعى لرأس المال . إذا سلمنا بهذه المقدمات صار من السهل أن نفهم المبررات التى تعلل ضرورة وجود الفائدة كأساس للاقتصاد الرأسمالى الحر .



وحتى إذا استعرضنا التاريخ وتأملنا حكمه على الإقراض بفائدة وجدنا ميلا ظاهراً إلى تحريم مثل هذا الإقراض ، وما كان التحريم إلا لأن الغالبية العظمى للمقترضين كانوا هم المعوزين والفقراء وأصحاب الحاجات . ومنذ عرف التاريخ الإقراض عرف الفائدة الربوية ؛ وقد استنكرها قدماء المصريين واليونان ، فذكر ضرورة إلغائها الفيلسوف سولون فى معرض ما قرره من وجوه الإصلاح ، وحرم أفلاطون الربا إطلاقاً إذ جاء فى كتابه « القوانين » : « لا يحل لشخص أن يقرض بربا » أما أرسطو فقد لحى الفائدة بقوله : « ليس هناك منطق أقوى من ذلك الذى يقرر أن أبغض الأشياء هو الربا الذى يستدر الربح من المال ذاته » . فلما كانت المسيحية قررت أن الربا « إثم وكبيرة » ومالبث مشرعو الرومان المسيحيون أن سنوا القوانين التى إما حرمت الربا أو حددت سعره ، وكان حجتهم فى ذلك حماية الفقير والمحتاج من عسف الدائن الغنى واستعباده . وليس خفياً أن المدين كان يسترق فى العصور الأولى ثم يحبس فى دينه . على أن هذه القوانين لم تحد كثيراً من ضراوة الفائدة وجشع المرابين ؛ إذ عمد هؤلاء إلى عقد صفقاتهم بصور مستترة تنجيهم من طائلة القانون وتدر عليهم الربح الحرام .

ظلت القروض استهلاكية فى غالبيتها حتى القرون الوسطى حين ازدهرت التجارة وطمع كثير من الناس فى أرباحها وحينئذ بدأ القرض الإنتاجى يظهر وقل معه ميل الناس والحكومات إلى تقييد القروض الربوية أو إلى تحديد سعر الفائدة ثم اضطرد هذا الاتجاه باضطراد التقدم المادى والحضارة المدنية حتى أتى حين من الدهر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر دافع فيه المفكرون عن الفائدة عموما ، وعن الفائدة التى تدفع

نظير قرض إنتاجى . فلما كانت الثورة الصناعية وبدأ الإنتاج الكبير وصار من الصعب بمكان أن يمول المنتج بمفرده مشروعه ، بدأ يفكر فى مصادر يجمع منها رؤوس أموال تساعده على المضى فى إنتاجه ، وهكذا انعكست الآية ؛ فبدلا من إقتراض الفقير من الغنى لسد حاجات استهلاكية ، صار الغنى المنتج يقترض من متوسطى الحال مافاض من أموالهم لسد حاجات إنتاجية ، بل إن المقترض لم يعد ذلك الفرد أو الإنسان الفقير ، ولكنه اتخذ شكل شركات مساهمة أو غير مساهمة كبيرة وصغيرة ، أو شكل مؤسسات معنوية حكومية وأهلية ، بل صارت الحكومة ذاتها من أكبر المقترضين قاطبة فى كل دول العالم. واستمر الحال هكذا حتى تكيف الاقتصاد الحديث على أساس هذه القروض التى لاغنى عنها فى كل إنتاج كبير ، وحتى لم يعد القرض فى الغالبية عبئاً ينوء به الفقير ، ولكن وسيلة من وسائل النهوض المادى ، وعاملا أساسياً فى بناء الصناعة والإنتاج الكبير ؛ وطريقا هاماً رئيسياً للحكومات تسلكه كلما أرادت القيام بمشروعات ضخمة تقصد منها إلى خدمة المجتمع ورفاهيته .

ولا بأس من أن نذكر فى هذه المرحلة أن تطور الفكر الاقتصادى فى العشرين سنة المنصرمة أخذ ينظر إلى سعر الفائدة نظرة تختلف عن سابقاتها من النظرات ؛ وأعظم ماانتشر فى هذا المضمار هو نظرية اللورد كينز ، ومدلول هذه النظرية أن الأفراد لايدخرون بقصد تكوين الدخول ولكن بقصد تكوين رؤوس الأموال ، وفى سبيل هذه الغاية تنشط المضاربات بغض النظر عن مقدار سعر الفائدة ، بل إنهم يستمرون فى الادخار وتكوين رؤوس الأموال حتى لو انعدم سعر الفائدة . وسبب ذلك فى رأى كينز هو أن المغنم الذى يحصل عليه الأفراد من جراء ذلك أكبر بكثير من عائد الاستثمار المضمون الذى قد يعود عليهم لو استغلوا مدخراتهم أولا بأول فى مثل هذا الاستثمار . وعلى هذا فسعر الفائدة بالنسبة لهذه النظرية أمر متعارف عليه ؛ إذ سيظل الادخار مستمراً بقصد تكوين رأس المال حتى لو وصلت الفائدة إلى الصفر سعراً ، وفى هذا يقول كينز « إن أى مستوى للفائدة يرتضيه الناس ويقنعون به يمكن أن يظل ساريا فى مجتمع متغير على أن يخضع بطبيعة الحال لمختلف التغيرات والعوامل التى تدور حول مايتوقع الناس أن يصل إليه السعر العادى » ومن رأى العلامة كينز أن ارتفاع سعر الفائدة يؤدى إلى عدم تشجيع الاستثمار ؛ إذ السعر المرتفع يعمل على كساد السوق أو النشاط الصناعى ، وبالتالى يؤثر سلبياً على الدخول التى هى مصدر الادخار . من أجل هذا كانت السياسات الائتمانية : أى التى يسهل فيها الحصول على الائتمان

حافزة على النشاط الصناعي ، خصوصاً في المجتمعات المتقدمة التي تتوافر فيها مقدرات الإنتاج وعوامله . ويلاحظ أن هذه المقدرات أكثر في البلاد المتأخرة منها في غيرها فلو استغلت هذه المقـــدرات والعوامل استغلالا يؤدي إلى التوظف الكامل Full Employment لإرتفع الدخل الأهلي بشكل محسوس ، ولازداد الادخار تبعاً لهذه الزيادة في الدخول ، ولتوافرت رؤوس الأموال ؛ وحينئذ يمكن أن يصل سعر الفائدة إلى الصفر . ولقد قرر كينز أن ذلك سيحدث تدريجياً ما دام الاقتصاد متخذاً سمت التوظف الكامل ، بل إنه قدر أن يتم ذلك في بلاد أوربا في مدة ثلاثين سنة يصل بعدها الاقتصاد الأهلي إلى ذروة النجاح ويتمتع الأفراد بأوفر نصيب من الرفاهية . ومضمون هذا إن سلمنا جدلا بصحة نظرية كينز أن الأفراد لن يصلوا إلى أوفر نصيب مالم يصلوا إلى التوظف الكامل أو العمالة الكاملة ، ولن تكون العمالة كاملة مادام سعر الفائدة قائما ، وهذا لايعني قطعاً أن إلغاء سعر الفائدة في مجتمع متأخر أو متقدم نسبياً معناه الوصول إلى العمالة الكاملة .



وبالرغم من تغير الظروف التي ولدت فيها نظرية كينز (١٩٣٦) وعن النجاح الذي لاقته هذه النظرية إبان الحرب العالمية الثانية وبعد هذه الحرب إلا أن الاتجاه الأخير في البلاد الغربية اتخذ طريقاً مضادا ، وبمجرد هدوء الحالة في كوريا وظهور بوادر الكساد الاقتصادي العالمي أخذت أكثر الدول تعمل على رفع سعر الفائدة . كما أن كثيراً من الاقتصاديين وعلى الخصوص في الولايات المتحدة أخذ يتحدى هذه النظرية ويفند أسانيدها العلمية . ومهمايكن من أمر فقد أحدث كينز انقلابا هائلا وثورة صاخبة في كل ميادين التفكير الاقتصادي ، ويهمنا هنا أن نتتبع هذا الانقلاب في ناحية خطيرة هي الفائدة وتكوين رؤوس الأموال . وتبدو هذه الثورة في كتابات بعض أساطين المفكرين أمثال هيكس وشاكل وهارود Hicus, Shackle & Harrod وغيرهم وخصوصا من الباحثين في مظاهر الأزمات الدورية Trade Cycles .

فهم يعزون هذه الدورات إلى وجود سعر الفائدة في الأغلب ، إذ لهذا السعر تأثير نفسي وحسي عميق في توالبها لأنها تؤثر في الادخار والتوظيف ، وتسلطت هذه الفكرة التحليلية على البروفسير هارود حتى ذهب في كتابه الشهير Towards a Dynamic Economics إلى أنه لا حيلة لنا في السيطرة على الأزمات الدورية والحيلولة دونها مالم نعمل على خلق اقتصاد جديد خلو تماما من الفائدة وسعرها ينبنى على أساس دولي عام . وللوصول إلى هذه الغاية يرى هارود أنه من الممكن إلغاء سعر

الفائدة إذا استطعنا أن نوجد رأس المال بالوفرة اللازمة التي تكفي ماتتطلبه المشروعات الإنشائية الجديدة؟ وبهذا لا يدفع المكافل Entrepreneur ثمنا لما يقترضه من رأس مال، وهو يعتقد أن هذه الوفرة ممكنة، بل ليس هناك سبب جدى سليم لعدم إمكانية هذه الوفرة فى الزمن الطويل ماذام الاقتصاد سائراً فى طريق التوظيف الكامل. وقد يقال إن ذلك قد يدعو إلى توقف الادخار والاستثمار نظراً لانعدام الفائدة، إلا أن هارود يزعم أنه فى حالة التوظف الكامل تقل فرص الاستثمار ولن يحجم الأفراد عن تكوين رؤوس أموال، ولكن الذى يحدث هو انعدام سعر الفائدة. وحلا لمشكلة الاستثمار يقترح هارود إصدار شهادات ادخار Saving Certificates تضمن للمدخر قوة شرائية ثابتة تمكنه من الحصول مستقبلا على قدر ثابت من الدخل الحقيقى.

" The owner of capital can obtain interest because capital is scarce, just as the owner of land can obtain rent because land is scarce. But whilst there may be intrinsic reasons for the scarcity of land, there are no intrinsic reasons for the scarcity of capital. An intrinsic reason for such scarcity in the sense of a genuine sacrifice which could only be called forth by the offer of a reward, in the shape of interest, would not exist, in the long run, except in the event of the individual propensity to consume proving to be of such a character that net saving in conditions of full employment comes to an end before capital has become sufficiently abundant". (Towards a Dynamic Economics P. 146). Again Prof. Harrod Says: —

"If the gilt-edged rate of interest eventually fell to a very low level, approaching zero, the banks will have to consider covering their expenses by service charges. (Ibid. P. 144).

وخلاصة الاتجاه العلمى الحديث هى ضرورة البحث فى السبل التى تؤدى إلى القضاء على سعر الفائدة، ويكاد الرأى يكون إجماعياً حول نقطة هامة هى أن الفائدة سبب أصيل متوطن من أسباب الاضطراب الاقتصادى الراهن سواء أخذ هذا الاضطراب شكل أزمات دورية، أو ظلامات فى توزيع الدخول الأهلية، أو عقبات فى سبيل السائرين نحو التوظف الكامل. وصحيح أيضا أن الاقتصاديين لم يصلوا بعد إلى حل عملى للتغلب على هذه المشكلة التى تمس الاقتصاد فى الصميم، وأن منهم من يحاول ذلك عن طريق تدويل الإنتاج Internationalisationevis of Prsduction وخاصة إخضاع إنتاج المواد الخام إلى رقابة دولية (يراجع فى هذا لورد بويد أور Lord Boyed Orr) ومنهم من يحاول إيجاد طريق يطبق فى الدولة ذاتها، ولم تخرج هذه الآراء جميعاً عن مجرد

اقتراحات وفروض علمية لم تصل إلى حد التطبيق بعد أو القوانين العلمية . وحقيقة أيضاً أن سعر الفائدة لم يعد ذلك (الحجر الأسود) بل صار حجراً عادياً فقد قداسته وغدا شراً لابد منه واتجه العلماء حالياً إلى التفكير فى طريقة تخلص العالم من شروره .

٢ — الربا فى الإسلام :

١ — النص : الربا — بصرف النظر عن تعريفه فنيا — محرم بنص صريح وارد فى القرآن الكريم ، وقد ورد ذكره فى أكثر من موضع . قال تعالى : « الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله » (ج ٢ — ٢٧٥ — ٢٧٦) .



وقال جل شأنه : « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » . (ج ٢ — ٢٧٨ — ٢٧٩) .

وقال تبارك وتعالى : « ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » . (ج ٣ — ١٣٠) .

هذه النصوص لاتدع مجالا لشك فى حرمة الربا ، وهى نهى صريح بالغ الموعظة يوجب أن نأخذ رأس مالنا ، وأن ندع مازاد عليه ؛ فالنهى عن الربا حسب مضمون هذه الآيات يعنى ألا نأخذ زيادة على ما أقرضنا ، وقد شدد الله سبحانه وتعالى عقوبة من يخالف عن أمره بأن شهر عليه حربا من الله ورسوله ؛ وهذا مايحدونا إلى أن نحرص كل الحرص على أن تخلو معاملاتنا من الربا ، وألا تشوبها منه شائبة ...

(للبحث بقية)

تفسير . . .

« وإذا نحن استخرجنا التفسير العملى لهذه الآية الكريمة : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، دلتنا الآية بنفسها على كل تلك الوسائل ؛ فما الحكمة هنا إلا السياسة الاجتماعية فى العمل ، وليست الموعظة الحسنة إلا الطريقة النفسية فى الدعوة » .

مصطفى صادق الرافعى

خاطرة

ينبوع غزير

فرغت الآن من صلاة العشاء وتسبيحاتها . . . ما أهنأ المصلِّى الصادق بصلاته ، وما أجمل أن يجد المؤمن نفسه بين يدى الله مرات فى اليوم والليلة . . .

هذه الصلوات عنصر أصيل فى برنامج التربية للقلب الإنسانى فى « الأرض » وهى ركيزة حياته الروحية بين تقلباته فى شتيت الأهواء والألوان من حاجات الجسد ومغريات الحياة . . . ولعل هذا الهدف العالى للصلاة يفسر شيئا من المناسبة بين قول الله سبحانه : « قم الليل » . . . وبين قوله : « إن لك فى النهار سبحاً طويلا . . . » فى سورة المزمل !

ولكن المسلمين لا يقيمون الصلاة على وجهها . . . ولو أنهم فعلوا إذاً لردتهم الصلاة إلى أنفسهم وربهم رداً موفور السلامة والبركة فى أساسه ووجهته .

***

أيها المربون : خذوا الناس بما أخذهم الله به ، وربوهم بما شرع لهم ؛ واعلموا أن الله سلك الخير فى حياة البشر ينابيع ، وجعل الصلاة أوسعها وأغزرها . . . ألا ترونه سبحانه آثرها وحدها بليلة المعراج ، وأمر بها نبيَّه صلى الله عليه وسلم وهو معه فوق سدرة المنتهى دون وحى أو حجاب . . . ؛ لتظل دائما الصلة بين الإنسان وربه صلة مباشرة تعرج بها روحه إلى رحاب الله !.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة معراج المؤمن » ! !

الثورة الدستورية الأولى

مصر تعزل واليها الظالم عملاً بمبادئ الإسلام

للدكتور محمد ضياء الدين الريس

أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة

ظفرت مصر بالجلاء ؛ وغادر آخر جندى فرنسى أرض مصر فى خلال شهر سبتمبر من عام ١٨٠١ . وكان المأمول أن مصر بعد أن كافحت هذا الكفاح المجيد فى سبيل كسب حريتها ، وبعد أن واجهت النار والحديد طوال ثلاث سنوات واصلت فيها المقاومة ، ولم يهدأ لها بال أو يقر لها قرار ما دام هناك جنود من الأجانب يدنسون أرضها ، فكانت تلك السنوات محنة قاسية كشفت عن حديد إرادتها ، وصادق إيمانها ، ومبادرتها إلى التضامن والوقوف صفاً واحداً لا ثغرة فيه فى أوقات الشدة والخطر ، حتى انتهت المحنة بفوز مبين . كان المأمول ، بعد هذا كله ، أن مصر ستفتتح صفحة جديدة من حياتها ، وتهنأ بعهد جديد من الاستقرار ، تنمحى فيه متاعبها ، وتنتظم أمورها ، ويتحقق كثير من آمالها .

ولكن الدولة العثمانية — وكانت مصر مثل سائر البلاد العربية لا تزال تعترف بالتبعية لسلطانها وتشترك معها فى نظمها السياسية والحربية باسم الخلافة ، التى لم تعد إلا خلافة إسمية ، وهى أبعد ما تكون عن نظام الحكم الصالح الذى رسم معالمه الإسلام — كانت تلك الدولة جامدة لا تساير قوانين التطور .

وعلى الرغم من أنه ظهر عجزها عن الدفاع عن الأقطار المنضوية تحت لوائها ، كما تجلى ذلك إبّان الحملة الفرنسية ، فإنه بمجرد أن تمكنت مصر من اجتياز تلك المحنة بفضل جهاد أبنائها ، ومعاونة العوامل الدولية ؛ إذ كانت بعض الدول الأوروبية قد وحدت جهودها لمناهضة سياسة فرنسا الاستعمارية فى عهد نابليون . بمجرد أن تحقق ذلك إذا بهذه الدولة العتيقة تعود إلى استئناف سياستها القديمة التى طالما أنّ منها المصريون ، وبذلوا المحاولات تلو الأخرى للتخلص منها ، أو لتخفيف بعض شرورها ؛ كأن الزمن لم يتقدم خطوة واحدة ، وكأن مصر لم تقاس من العذاب

صنوفا ، وتبذل من التضحيات ألواناً ؛ وكأن لم يقع من الأحداث ما كان ينذر بأن العالم ينتقل من طور إلى طور !

كان أهل مصر ينتظرون أن تصغى الدولة لمشورتهم ، أو على الأقل أن تعين لهم واليا صالحا ، أو تخفف عنهم عبء الضرائب ، أو تعمل على رفع المظالم المتعددة الأنواع التى كانت تثقل كاهلهم ، وكان قد تكوّن فى البلاد وعى جديد بدأت تدل عليه آثاره منذ قيام على بك الكبير بمحاولة جريئة لإعلان استقلال البلاد عن الأستانة؛ ثم اشتد وقوى نتيجة لظلم إبراهيم ومراد بك ؛ ثم تحول إلى قوة وطنية يرهب بأسها فى عهد وجود الحملة الفرنسية . فكان هذا الوعى يتطلع إلى عهد جديد تغلب فيه إرادة البلاد ، ويعترف بقوميتها ، وتكون الرعاية الأولى فيه لمصالحها .

ما كان أبعد الفرق بين هذا الوعى وبين عقلية الحكام الذين كانوا يقررون مصائرها ، وهم مقيمون بالأستانة : ما بين باشوات وإقطاعيين وأغوات ، ورؤساء وجاقات وجند انكشاريين ، وغيرهم . كانت الهوة سحيقة والمدى بعيداً .

ولقد ظلت مصر — خلال السنوات الأربع التى تلت جلاء الفرنسيين — مسرحاً للصراع بين قوى مختلفه متضاربة : فهناك العثمانيون ، والجنود الانكشارية ، والجنود الأرناءود « الألبان » والمماليك ، والدسائس الاستعمارية ، ثم أضيف إليهم أخيراً جموع « الدلاة » أو « الدلاتية » — أى الأكراد — فكان هؤلاء الجنود يسرحون ويمرحون فى ربوع البلاد لا هم لهم إلا السلب والنهب ، والاستيلاء على أقوات الناس ، وفرض الضرائب والاعتداء على الحريات ؛ فكانت الحال فوضى مطلقة ، وظهر الولاة ومن ورائهم الدولة عاجزين عن أن يفعلوا شيئاً لتغيير الحال ؛ أو لم يكونوا فى الحقيقة يريدون أن يفعلوا شيئا .

عينت الدولة واليا على مصر : « محمد باشا خسرو » ؛ وكان مملوكا سابقا للقبطان حسين باشا ، فمكث فى الولاية نحو عامين إلى عام ١٨٠٣ . وفى عهده تمثلت كل مساوىء الحكم العثمانى . وعاد إلى إرهاق الناس بالضرائب ؛ وانتهى أمره بأن ثار عليه الجند من انكشارية وأرنؤود بقيادة « طاهر باشا » ، لتأخره فى دفع رواتبهم ، وأحرقوا قصره بالأزبكية ، واضطروه إلى الفرار . وتولى « طاهر باشا » الحكم ستة وعشرين يوما ؛ اغتاله فى آخرها جنديان من الانكشارية . وحينئذ خلفه فى زعامة الأرنؤود نائبه « محمد على » ، وهو من جنسهم ؛ وسعى محمد على إلى أن تحالف مع زعيمى المماليك : « إبراهيم بك » و « البرديسى » ليستعين بهما ضد قوة

الانكشارية التى كانت خطراً على جنده ؛ وبعد أن حقق هذا التحالف أغراضه وأُخرج الانكشارية من البلاد غدر محمد على بحليفيه وأرغمهما على الفرار . ولكنه لم يجرؤ على مناوءة الدولة العلية وإعلان عصيانه جهاراً ؛ لأن مثل هذه المحاولة كان لابد أن تبوء بالفشل . فعينت الدولة حينئذ « أحمد خورشيد باشا » وكان حاكما للاسكندرية من قبل وعرف عنه الظلم والقسوة ، ولم يستطع محمد على إلا أن يقر له بالولاء ويخضع لأمره . وكان تعيين الوالى فى عام ١٨٠٤ وفى عهده تتابعت المظالم واضطربت الأمور .

هذه هى الحوادث الرئيسية التى انتهت بقيام تلك الثورة ، التى تحدى فيها الشعب سلطان الخلافة ، وأعلن الحرب على الوالى الذى عينته ، وأعلن عزمه على أنه يريد أن يقرر مصيره بنفسه . وكانت هناك قوة تدفع الشعب ، ناشئة عن ذلك الوعى الذى تحدثنا عنه — ولو أنها كانت قوة غامضة ولم تظهر أمامها الأهداف واضحة محدودة — قوة تدفعه إلى أن يبنى لنفسه مستقبلا جديداً ، ويضع الأسس لحياة جديدة تعود بها مصر دولة حديثة راقية ، وتبرز شخصيتها وتظهر إرادتها . وكانت الأسباب العامة التى أدت إلى الثورة هى تلك التى وصفناها : أى ما كانت تعانيه البلاد من حالة الفوضى ، وعدم الاستقرار ، وتمادى الدولة العلية فى تجاهل رغباتها وإهمال شئونها .

وقد لبثت مصر فترة بعد فوزها بجلاء الفرنسيين ، وكأنما كانت تستجم قواها وتجدد حيويتها فتركت تلك الجيوش الطارئة تتصارع فيما بينها ، ويوهن بعضها من قوة بعض ؛ حتى إذا حانت الساعة وبلغ الظلم مداه وثبت إلى الميدان لتضع حدا لهذا التصارع بين القوى ، وتشعرهم أنها القوة التى يجب أن تبقى وحدها ، وهى التى يجب أن تقرر مصير الوطن .

أما الأسباب المباشرة : وكانت الكوارث التى حلت بالبلاد من جراء استقدام جند جديد أربى عددهم على ثلاثة آلاف ؛ هم جند « الدالاتية » الذين جلبهم الوالى العثمانى الأخير « أحمد خورشيد باشا » . وكان يريد أن يعيد بهم نفوذ العثمانيين ، ويقضى على قوة الأرنؤود وزعيمهم محمد على ، ويطيل أمد حكمه حتى يستولى على ما يشاء من الأموال والضرائب التى تمتد إليها مطامعه .

حضر هؤلاء الجنود وهم غير نظاميين ؛ وأطلق لهم الوالى العنان ليجبوا الأموال التى وعدهم بها بأيديهم ؛ فتفرقوا فى أنحاء العاصمة وغزوا بلدانا أخرى فى الأقاليم ؛ وهم ينهبون ويخربون ، ويشاركون الناس فى مساكنهم وأقواتهم ، ولا يراعون حرمة ؛ بل انتهى بهم الأمر إلى الاعتداء على الأعراض . والناس يجأرون بالشكوى

ويتقدمون إلى الوالى بطلب الضرب على أيديهم ولكنه لا يصغى لطلبهم وكأنه يحرضهم على المضى فى عدوانهم ؛ فبلغ السخط بالشعب مداه وانفجرت الثورة .

بدأت الثورة فى يوم أول صفر من عام ١٢٢٠ هـ . (وهو الموافق أول مايو سنة ١٨٠٥) فى حى « مصر القديمة » ، إذ كان معسكر الجنود الدالاتية بها . وتوجهت الجموع إلى « الجامع الأزهر » وكان قلب العاصمة النابض فى ذلك الوقت ، بمثابة « برلمان الشعب » — فشكوا إلى العلماء ما يعانون . وكان العلماء إذ ذاك زعماء الأمة : إذ كانوا يعبرون عن روحها ، ويتكلمون بلسانها ، ويتجاوبون مع شعورها ؛ وكانوا أقوياء فى الحق معتصمين بالله لا يخافون فى الله لومة لائم . ولذلك كان الحكام والأمراء يهابونهم ، ويأتمرون بأمرهم . وكم لهم من أفضال على مصر فى عهود الظلم والظلام ، فطالما دافعوا عن الشعب ورفعوا عنه المظالم . وكان على رأس العلماء فى ذلك الوقت السيد عمر مكرم النقيب ، العالم الثائر المجاهد ، والشيخ محمد السادات الذى اضطهده الفرنسيون وقذفوا به فى السجن هو وأهله ، وكانوا يضربونه بالعصى فى السجن صباحا ومساء ، والشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ محمد الأمير وغيرهم .

فانضم العلماء إلى الشعب وقادوا الثورة وأضربوا عن الدروس ؛ وكان ذلك إيذاناً بأن أغلق التجار حوانيتهم ، وأخذ الناس يستعدون لجمع الأسلحة ، وانتشر الاضطراب فى المدينة ، وبقيت الحال هكذا نحو اثنى عشر يوماً ؛ ففى اليوم الأخير ذهب العلماء إلى « بيت القاضى » وازدحمت ردهاته وأفنيته بالناس حتى قدر عدد الحاضرين فيه بنحو أربعين ألفاً ؛ وكان من بين الهتافات التى ينادون بها : « شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم ! » ؛ « حسبنا الله ونعم الوكيل » وأيضا : « يا رب يامتجلى أهلك العثملى ! ! » . وهذا الهتاف الأخير يبين روح الشعب ويدل على اتجاهه .

وحرر العلماء وثيقة تاريخية بمطالب الشعب أرسلوها إلى الوالى ذكروا فيها اعتداء طوائف العسكر على الحريات ، وإيذائهم للناس ، والمظالم والضرائب ، ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك . وطلبوا الجواب فى اليوم التالى . ورفضوا أن يذهبوا إليه حينما أرسل يترضاهم ، آملا أن يخدعهم . ولما لم يحضر الجواب فى الموعد الذى ضربوه اجتمعوا مرة أخرى فى بيت القاضى وتداولوا فى الأمر ، ثم قرروا خلعه ؛ وأن يولوا غيره بمحض اختيارهم ومشيئتهم ، وبإرادة الشعب الذى كانوا يمثلونه وينطقون باسمه .

وكان اختيارهم قد وقع على « محمد على » زعيم قوة الأرنؤود ؛ إذ أنه كان

قد تقرب إليهم وظهر أمامهم بمظهر الرجل الذى يمكن أن يوثق به ، والذى يتعهد بأن يطيع أوامرهم ويعمل على تنفيذ رغباتهم ، ويتعاون معهم على تحقيق البرنامج الإصلاحى الذى كانوا يفكرون فيه ويتوقون إلى تحقيقه ؛ وكانوا فى حاجة على كل حال لأن يعتمدوا على قوة حربية ليستطيعوا أن يشهروها فى وجه القوى التابعة للوالى، وتسندهم إذا اختارت الدولة أن تتحدى إرادتهم . فبدت قوة « الأرنؤود » وعلى رأسها محمد على كأنها القوة الصالحة الوحيدة التى يمكن أن يعقد معها الشعب تحالفاً .

ولكن محمد على — كما كانت الأيام ستظهر فيما بعد — لم يكن أكثر من ممثل بارع قد أتقن دوره كل الإتقان ؛ فكان يتفق معهم وهو لا ينوى إلا الغدر ، وكان لا يقصد أن يتخذ من ثقة الشعب إلا أداة توصله إلى نيل مطامعه وأغراضه الذاتية . ولكن قادة الشعب لا يستحقون أن يوجه إليهم لوم على وضع ثقتهم هذه فيمن لم يكن أهلا لها ؛ فهم ليسوا أول ولا آخر من خدع ؛ والناس لا يطلعون على النيات والسرائر . ثم كانت هناك علة أخرى وهى أن القوم فى ذلك الزمان كانوا يعتمدون على كلمة الشرف ، وكانوا لا يزالون يقدرون قانون الشرف ؛ إذ كانت الأخلاق الدينية لا تزال قاعدة المجتمع . ولكن محمد على أتى بفكرة جديدة وقانون لم تكن تعرفه الديار ، وهى فكرة الخبث والوصول إلى تحقيق المآرب الذاتية بطريق الغدر والختل . كان القانون الذى جاء به هو قانون أن الغاية تبرر الوسيلة ؛ أى وسيلة كانت ولو كانت منافية للشرف . فكان أول من اتبع السياسة التى يسمونها « المكيافيلية » فى هذه البلاد ، وهى السياسة التى لا تتقيد بقوانين الدين أو الأخلاق . وقد عين الجبرتى هذه الصفة على أنها أبرز صفاته ، وضرب الأمثلة العديدة على غدره بكل من حالفه ، حتى إنه لم يتورع عن أن يخون « البرديسى » بعد أن شرب كل منهما من دم الآخر ، دليلا الأخوة الدائمة وضماناً للوفاء . ولكننا لا نريد أن نستبق الحوادث .



أما ما حدث فى ذلك اليوم — وهو يوم تاريخى أو يوم فاصل فى حياة البلاد — فإن العلماء وقد اجتمعوا به فى داره ليعقدوا معه الحلف ويبايعوه ، قالوا له فيما قالوا : « إننا لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ، ولا بد من عزله من الولاية ، وإنا نرتضى أن تكون واليا علينا ، بشروطنا ؛ لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ! » . وكان كل من سمع أقواله وتصريحاته للعلماء يتوسم فيه ذلك أيضا . ثم — كما يقول مؤرخ العصر — « أحضروا له كرمه وعليه قفطان ؛ وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى فألبساه له وذلك وقت العصر ؛ ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة » .

فهكذا تمت الثورة الدستورية الأولى فى تاريخ مصر الحديث (عام ١٨٠٥)

إذ أن الشعب قد قرر خلع واليه الظالم وهو « أحمد خورشيد باشا » المعين من قبل السلطان ، دون أن ينتظر حتى يعرف مشيئة الدولة . وعين بدلا منه شخصا آخر هو « محمد على » ، الذى ظن فيه الخير حينذاك. وقد امتنع الوالى من تنفيذ القرار ؛ وقال أنه لا يعزل بأمر الفلاحين : أى المصريين ، وتحصن بالقلعة وانضم إليه جنده . ولكن الشعب حاصره وقام بثورة مسلحة ضده ، وقاد الثورة زعيمان من رجال الشعب هما : حجاج الخضرى وإسماعيل جودة ؛ وكانا يعملان تحت إمرة « السيد عمر مكرم » الذى ينبغى أن يعتبر بحق زعيم مصر الوطنى الأول . وما زال الحصار مضروباً والشعب مستمرا فى جهاده حتى جاء خطاب من الأستانة يقر ما فعله الشعب ، ويبين سبب الإقرار بقوله : « حيث رضى بذلك العلماء والرعية » . ولم يجد الوالى المخلوع بدا بعد أن استمر فى إصراره وعناده شهراً آخر ، من أن ينزل من قلعته ويغادر مصر .

وليس هناك أدل على الروح التى كانت تدفع تلك الثورة والتى وجهتها ، من إجابة السيد عمر مكرم لأحد زعماء الأرنؤود الذين كانوا معضدين للوالى : فقد اعترض هذا الرجل قائلا : « كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ؟ » فأجابه السيد عمر : «أولو الأمر : العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل . وهذا رجل ظالم . وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة . . حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه » .

وأجابه الشيخ السادات بمثل ذلك .

فهكذا كان العلماء الذين يفهمون روح الإسلام ، والذين كانوا يعملون لإقامة شريعة الله العادلة فى الأرض .

ولقد نجحت الثورة ووضعت آمالها فى « محمد على » ولكنه لم يرع الأمانة وخان العهد . وعلى كل فإذا كانت مصر قد أفادت من عهده خيراً من أى وجه فإنما الفضل فى ذلك يرجع إلى الذين ولوه . وهم على كل حال قد خلصوا الشعب من الحكم العثمانى ؛ ووضعوا الأسس لمصر المستقلة . ولو كان هذا الرجل قد وحد قوته مع الشعب لكانت مصر قد أصبحت فى عداد الدول الكبرى فى مطالع القرن التاسع عشر ؛ ولكنه سعى وراء مجده الشخصى واغتر بالبريق الخادع ، وضحى بالشعب فى سبيل الوصول إلى مآربه . وكذلك فعل خلفاؤه وأحفاده . وقام الشعب بثورة أخرى فى عهد البطل أحمد عرابى ليخلع حفيدا له ، ولكن الاستعمار تدخل وقضى أن يستمر حكم الاستبداد والفساد ؛ حتى قيض الله لمصر البطل محمد نجيب وصحبه فأنقذوا البلاد من هذا الفساد ، وخلعوا « فاروق » سفيد محمد على . وما محمد نجيب إلا الخلف الصالح لخير سلف وهما بطلا مصر والإسلام : أحمد عرابى والسيد عمر مكرم . ؟



* مسلم يكتشف الفاصل المغناطيسى .
* تهمة قاسية .
* سعر الفائدة والربا . . .
* لاتُشد الرحال إلا إلى ثلاثة . . .

يذكر الأخ القارىء مانشرناه فى العدد السابع من السنة الأولى من « المسلمون » تحت عنوان «مسلم يكتشف الفاصل المغناطيسى» وقلنا إذ ذاك : «إن هذا المسلم المكتشف رجل عرفناه وعرفه قومه فى فلسطين وعمان بالورع الشديد وأصالة الرأى . وقد حاول الإنجليز أثناء الانتداب أن يستولوا على اكتشافه فاستعصم ، وأبى عليه إيمانه أن يعين عدواً ... وهاهوذا يمد يده إلى المسلمين » ؛ وكتب المكتشف نفسه قصة اكتشافه وخطورته ، وكيف يمكن به أن تدار الآلة باستخدام قوة المغناطيس الثابت بنفس الطريقة التى يستخدم بها التيار الكهربائى ؛ دون كهرباء ودون بترول . وقال فى آخر مقاله الصغير : « إننى رجل فقير ، ولولا ذلك لسجلت الاختراع بنفسى ، ولكننى على استعداد تام للاتفاق مع أية حكومة مسلمة أو شركة مسلمة بالشروط المتعارف عليها دوليا إزاء كل اختراع جديد ، وسأفضى لها بعد ذلك بالحقيقة العلمية التى اكتشفتها » .

ويسعدنا أن تكون اليد التى تمتد إلى هذا الأخ المسلم المجاهد يداً عزيزة من أقصى المشرق ؛ هى يد جمعية نهضة العلماء التى بعثت إلينا بالرسالة التالية لنوصلها إليه .

***

وبعد ، فقد اطلعنا على مانشرته «المسلمون» فى عددها السابع من السنة الأولى على مقال تحت عنوان « مسلم يكتشف الفاصل المغناطيسى » ذكرتم فيه أنكم قد اشتغلتم بالبحث لإيجاد آلة تدور دون استخدام أية قوة ، وأنكم قد توصلتم إلى استخدام

قوة المغناطيس الثابت ، وذكرتم أنكم على استعداد تام للاتفاق مع أية حكومة مسلمة أو شركة مسلمة بالشروط المتعارف عليها دوليا . . .

وبناء على ذلك فإن الهيئة المركزية لجمعية نهضة العلماء بأندونيسيا تعلن ابتهاجها بوجود مسلم استطاع أن يتوصل إلى مثل هذا الاختراع ، وتبدى عظيم اعتزازها بالإخلاص الذى أعلنتموه بأنكم لن تتفقوا إلا مع حكومة مسلمة أو شركة مسلمة ، فهى بأمثالكم فخورة ، ثم إنها تفيدكم باستعدادها للاتفاق معكم إما على شراء الاختراع وإما على العمل المشترك بينكم وبينها ؛ إذ أن الجمعية لا تريد أن تسلك طريق الاحتكار . وعلى أيهما توافقون ننتظر جوابكم والشروط التى تقدمونها . ونرجو أن تتمكن جمعيتنا من الاتفاق معكم قريباً .

ولا ننسى أن نشكر مجلة « المسلمون » التى أتاحت لنا فرصة العلم بأمر اختراعكم ، وكانت واسطة الصلات ، وهذه الرسالة بطريقها ، وتقبلوا منا أزكى التحيات .

عن الهيئة المركزية لجمعية نهضة العلماء .

الرئيس الكاتب

عبد الواحد هاشم عبد اللطيف دمياطى

***

وهذه رسالة أخرى من سنغافورة من السيد عبد المنتقم بن عبد الجبار ، يحمل علينا فيها حملة قاسية ، ويتهمنا بما نبرأ إلى الله منه ؛ فنحن والحمد لله نحب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونكبر هذه العاطفة الكريمة فى كل من يحبهم ... ولكن ذلك لايمنعنا أن نتأدب بأدب رسول الله ونطيع أمره : « لاتسبوا أصحابى » ونسد بذلك ثغرة ما أكثر ما نفذ منها الشيطان إلى وحدة المسلمين فمزقها . والذكر الحسن لمعاوية لايعنى الإساءة إلى الإمام على ، ولكنه قد يعنى أن تاريخنا يحتاج إلى قراءة جديدة ، وإلى تمحيص دقيق ، وربما خرجنا من ذلك بحقيقة كبيرة هى أن أصحاب رسول الله هم أصحاب رسول الله ، وبأن الذى حدث بينهم لم يكن إلا فتنة عمل على تكبيرها أعداء على ومعاوية ، ثم هول فى روايتها الغافلون والمغرضون ممن كتبوا عن هذه الفترة من تاريخ الإسلام من بعد ؛ والأمر بذلك لايعدو أن يكون بحثاً تاريخياً يلتزم أدب رسول الله ، ولايحمل للامام على أو الحسين سيد شباب أهل الجنة إلا كل محبة وإجلال ، رضى الله عنهما وأرضاهما . وليس لأحد أن يمنع مثل هذا البحث ، كما أنه ليس لأحد أن يقرّ بالعصمة إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

كنا نرجو من الأخ السيد عبد المنتقم بن عبد الجبار — ولسنا ندرى أهذا هو اسمه ، أم هو اسم أراده مبالغة فى تأديبنا — أن يتثبت من تهمته القاسية قبل أن يحمل حملته ... ألم يكن أقرب إلى حسن الظن أن يدرك أن الكاتب (أو أكثر) الذى تناول هذا الموضوع إنما يعبر عن رأيه لا عن رأى « رئيس التحرير » وأن رأيه بذلك وجهة نظر تعرض فى « مجلة » ليرد عليها مثل الأخ السيد عبد المنتقم ؟

وعلى كل فنحن نرجو حضرات الكتاب الفضلاء أن يوجهوا جهدهم أولا إلى الأمور المتفق عليها : يجلونها ويؤلفون القلوب حولها ، ويدفعون إلى العمل بها . وفى نور الإيمان ومشغله العمل لن يجد التافه الذى تعود أن يعبث بعقولنا وقوانا متسعا من الوقت ، ولا فراغا من الجهد .

* * *



ويطلب الإخوة الفضلاء : إبراهيم عبد العال الوكيل من العطارين بالإسكندرية ، والسيد حمدى الحريرى من حوران بسوريا ، وعبد الله صبره من زفتى أن نكتب عن الربا وسعر الفائدة وحكم الإسلام فيهما ، وفى أرباح الجمعيات التعاونية . ولعلهم واجدون طلبتهم فى بحث الأستاذ الفاضل محمود أبو السعود ، الذى ننشر الفصل الأول منه فى هذا العدد .

* * *

جاءتنا رسالة مطولة من السيد عبد الرحمن بن سليمان الرويشد بالمعهد العلمى بالرياض يقول فيها .

نشرت مجلة « المسلمون » فى عددها العاشر الصادر فى ذى الحجة ١٣٧١ مقالا بعنوان (كيف تحج وتزور) يتكون من كلمة ذات شقين : يتعلق الأول منهما بالحج والترغيب فيه ، وماينبغى للحاج أن يتصف به من إخلاص وتجرد ؛ وثانيهما يصف زيارة القبر الشريف ، وكيف تكون حال الزائر عند مشاهدته . غير أن الكاتب فى هذا القسم الأخير تجاوز الحد المشروع ، فأحببت أن أبذل جهداً متواضعا لبيان هذا التجاوز عملا بالمبدأ المقرر شرعا « الدين النصيحة » .

(١) صرح الكاتب أن زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم مقصد أساسى لطلب العفو والمغفرة من الله ، وقال إن ذلك مشروع بدليل قوله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفرلهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما » وجعل هذا هو المقصد الأول من الزيارة . وهذا لم يقله أحد من الصحابة ولا من التابعين ، ولم

يعهد فيه عن السلف الصالح شيء . والنصوص الصحيحة ترد هذا القول وتنكره بشدة ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاتجعلوا بيوتكم قبوراً ولاتجعلوا قبرى عيداً وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيث كنتم » رواه أبو داود وغيره. وقال: «لاتتخذوا قبرى عيداً ولابيوتكم قبوراً وصلوا على فإن تسليمكم يبلغنى أين كنتم » رواه أبو يعلى والقاضى إسماعيل والحافظ الضياء فى المختارة . وأخرج البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . قالت عائشة : يحذر ماصنعوا .

ولو ألقى الكاتب نظرة واحدة على الآية وقرأ ماقبلها لاتضح له المقصود ، وخصوصاً بعد أن يعرف السبب الذى من أجله نزلت الآية ، فمعرفة سبب نزولها يعين على فهمها كثيراً ، ولو رجعنا لكتب التفسير لوجدنا ابن جرير رحمه الله - وهو من أجل المفسرين - يذكر أن سبب نزول الآية ومعناها فى المنافقين الذين تحاكموا إلى الطاغوت ولم يرضوا برسول الله صلى الله عليه وسلم حكما ، وذكر فى ذلك آثاراً كثيرة ولم نره تعرض للاستغفار عند القبر . نعم كان الصحابة رضى الله عنهم يفعلون ذلك فى حياته صلى الله عليه وسلم كما ثبت ذلك فى الأحاديث الكثيرة ، أما بعد وفاته فلم يؤثر عن أحد منهم فعل ذلك ، بل مازال السلف ينهون عن تحرى الدعاء عند قبره سداً للذريعة ؛ كما روى عبد الرزاق أن الحسن بن الحسين بن على رأى قوما عند القبر الشريف فنهاهم وقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تتخذوا قبرى عيدا » . وفى كتاب القرى للطبرى من أصحاب مالك عن مالك أنه كره أن يقول : زرت قبر النبى صلى الله عليه وسلم محتجاً بالحديث الذى رواه : « اللهم لاتجعل قبرى وثنا يعبد » . وأخص الناس بالرسول صلى الله عليه وسلم وأشدهم له تعظيما أصحابه رضوان الله عليهم ولم يكونوا يزورون القبر فى كل وقت للسلام عليه ، ولم يكونوا يأتونه فى كل مناسبة ، وأكثر ما روى فى هذا عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه ، وكان صنيعه فى السلام أن يقف على القبر ويقول : « السلام عليك يارسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك ياأبتاه ؛ وينصرف » . ذكر ذلك سعيد بن منصور فى سننه وغيره .

وتساءل الكاتب فى استفهام : « إذا لم نزر قبر الرسول لمثل هذه الأغراض الروحية فيم تكون الزيارة ؟ وأضاف يقول : « إن قبره كسائر القبور ، ولكن صاحبه ليس كسائر الموتى وهذا مايوجب شد الرحال إليه » .

وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد :

المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » . ورواه أحمد بلفظ آخر ، فعلم من هذا أن شدّ الرحل بقصد زيارة القبر مخالفة لما ثبت فى هذا الحديث . والصحيح أن يشد بقصد زيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بعد هذا كله ذكر الكاتب مقصداً ثانياً من مقاصد الزيارة ، وهذا المقصد هو توثيق العهد وتجديد البيعة بين يديه صلى الله عليه وسلم ، وفسر الكاتب هذا بأنه إحياء ماجاء به قولا وعملا وسنة وقرآناً . والحق أن هذا مقصد نبيل وغرض شريف ، ولكنه يجب علينا فى تحقيقه ألا نفعل مالم يفعله السلف . ولم يترك لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه أثارة من علم تدل عليه .

وعسى ألا أكون قد جاوزت الصواب فيما كتبت والله ولى التوفيق .

* * *

ورسالة السيد عبد الرحمن طويلة لم يتسع المجال لنشرها جميعها ونحن نشكر له اهتمامه ودقته ، ونسأل الله أن يقيمنا على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير شائبة ، وأن يرزقنا صفاء النفس ونور القلب وجميل الأدب مع الله ورسوله .

* * *

هذا ، وقد تلقينا فى هذا المعنى نصيحة كريمة من فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المهيمن أبو السمح إمام الحرم المكى الشريف يوجهنا بها إلى أن نعيد النظر فى مقال : (كيف تحج وتزور) فى العدد العاشر من « المسلمون » جزاه الله خيراً ؟

الدستور الإسلامى

لم يتمكن الأستاذ الدكتور محمد عبد الله العربى من مواصلة بحثه فى « الدستور الإسلامى » لأمور عرضت لحضرته ، وموعدنا العدد القادم إن شاء الله .

* * *

باب الكتب

نفتتح فى العدد القادم بمشيئة الله باباً جديداً نتناول فيه الكتب ذات الصلة برسالة « المسلمون » بالعرض والنقد . وسيتولى هذا الباب الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى . ونرجو من حضرات المؤلفين الراغبين فى تقديم كتبهم أن يرسلوا من كل كتاب نسختين : واحدة للتحرير ، وواحدة للأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى . والمجلة ترجو أن تعتبر غير ملتزمة بالكتابة عن كل كتاب يرد إليها .

سبحات فكر

للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام

الاستسلام للتيار

الناس مولعون بالمحاكاة ، كلفون بمسايرة من هم أعظم منهم شأناً ، مستكينون إلى الواقع . وقليل من الناس يستطيعون الخلاص من سلطان المحاكاة ، وحكم العرف وسيطرة الواقع . هؤلاء هم المصلحون الذين تنجبهم الأمم بين الحين والحين لتقويم المعوج وإصلاح الفاسد ، والخروج على سلطان الواقع ، والثبات في مجرى الحادثات .

وكثير من الناس يحسبون أنهم أحرار وهم في الواقع مستعبدون . هم يخرجون على مذهب أو عرف لأنهم قد استعبدهم مذهب أو عرف آخر . ومن هؤلاء بعض المعاصرين في أمتنا يخرجون على أممهم في رأي أو عادة ، ويصيحون أنهم أحرار مفكرون ، وهم في الحق عبيد بهرتهم مدنية أوربا وزينتها وفتنتها ؛ ولهذا لا تجدهم يدعون إلى أمر مبتكر أو طريقة مبتدعة ، بل إلى ما أخذوا من سنن أوربا . ولو صدقوا في دعوى الحرية لأخذوا من أممهم ورووا ، وقبلوا من أوربا ورفضوا ، واخترعوا أحياناً من عند أنفسهم ما يخالف لهؤلاء وهؤلاء .

لقد خبرت كثيراً ممن يخالفون أمتنا في كل شيء ؛ فإذا هم مستسلمون لأوربا في كل شيء . ومن كبار كتابنا من دعا إلى مسايرة الزمان ، ومن كبار رجالنا من قال وأنا أحاوره في الحسن والقبيح : إن الأحسن هو الواقع .

والخلاصة أن دعوة هؤلاء الأحرار هي الاستسلام للتيار . ونحن نقول : إنما يذهب التيار بالأشياء الجامدة ، والأجسام الهامدة .

***

هو الظاهر والباطن

تختفي كالنجم بالغيم اختفى ثم تبدو ومَضَ برق للعباد

أنت في ومْضٍ وغيب ظاهرٌ إنما العين بياض وسواد

***

لا إله إلا الله [1]

إنما التوحيد إيجاب وسلب فهما للنفس عزم ومضاء
« لا » و « إلا » قوة قاهرة فهما فى القلب قطبا كهرباء

* * *

ضوضاء هذه المدنية

هذه مدنية ذات ضوضاء شديدة ، ضوضاء حسية وضوضاء معنوية ، ضوضاء نفسية وضوضاء خارجية فى الأنفس والآفاق .

فالإنسان حيثما سار وحيثما سكن تقلقه الأصوات من كل ناحية من السيارات والقطارات والمذياعات والمجاهر والمصانع وغيرها . أصوات تأخذه من كل جانب فى الطريق لايجد عنها محيداً ، وتتبعه إلى داره فلا يجد منها مفراً .

ثم الضوضاء النفسية من المذاهب المتصادمة ، والدعوات المتناقضة ، والمقالات المتلاحقة فى القيِّم والتافه ، والجد والهزل ؛ تعرضها على من يريدها ومن لايريدها ، ومن يفهمها ومن لايفهمها الجرائد والمجلات ، والمحاضرات والإذاعات وهلم جرا .

فالإنسان من هذه المدنية فى ضوضاء ظاهرة وباطنة تقلق بها النفوس وتضوى بها الأجسام ، وأحسب كثيراً من العلل النفسية والجسمية وليدة هذه الضوضاء . ولكن الإنسان يعيش فى هذه الآفات فيألفها فلا يفطن لها ولايبرم بها ، أو يفطن لها وينفر منها ويضيق بها ، ولكن أين المفر .

لعل أسوأ آفات هذه المدنية هذه الضوضاء ، وأنها هى اضطراب فى النفس وقلق ، وسقم فى الفكر وخلل ، وتعب فى الجسم ومرض .

إن على الإنسان أن يفر من هذه الضوضاء جهده ، ويطلب الهدوء والسكون بعيداً عنها ما استطاع ، وإن على الحكومات أن تتعاون على التخفيف منها ، وتغليب الإنسان عليها ؛ بمنع مايمكن منعه ، والحد مما يمكن حده ، وهكذا . مايدرينا لعل هذا الخصام والنزاع والاحتراب كله أو بعضه من آثار هذه الضوضاء التى تدوى بها المدنية الخرساء .

---

(١) التوحيد نفى ما سوى الله وإثباته تعالى ؛ فإذا كمل هذا النفى وهذا الإثبات كان للنفس من قوة الإيمان ما يكون للكهرباء إذا اتصل قطبها الموجب بقطبها السالب . « لا » و « إلا » فى كلمة التوحيد كهذين القطبين فى الكهرباء .

النظام الرأسمالى الجديد

للأستاذ أبى الأعلى المودودى

نقلها إلى العربية السيد محمد عاصم الحداد

إن النظام الاقتصادى الذى نهض بنيانه على النظرية المطلقة للاقتصاد الحر ، يُصطلح عليه بالنظام الرأسمالى الجديد (Modern Capitalism) .

مبادىء الاقتصاد الحر :

وفى ما يلى نذكر لك ما لهذا النظام من المبادىء الأساسية :

١ — حق الفرد فى ملكيته الشخصية : وهذا الحق لا ينحصر فى مال يستعمله وينتفع منه الإنسان بنفسه من الأشياء كالملابس والأوانى وأثاث البيت ، والمراكب والماشية ، بل يشمل أيضاً تلك الأدوات والمرافق التى ينتج بها مختلف الأشياء الاستهلاكية ليبيعها من غيره كالماكينات والآلات والأراضى والمواد الخام . أما القسم الأول فلا خلاف فى حقوق الملكية الفردية فيه ، وقد سلمت به النظم الاقتصادية كلها . ولكن النزاع كل النزاع فى القسم الثانى أى وسائل الإنتاج : هل يجوز فيها أيضاً حق الملكية الفردية أم لا ؟ فأول ما يمتاز به النظام الرأسمالى فى هذا الباب أنه يسلم بهذا الحق ، بل هو حجره الأساسى الذى ينهض عليه بنيانه فى حقيقة الأمر .

٢ — حق الحرية فى السعى : أى أن للأفراد — أفراداً وطوائف صغيرة أو كبيرة — حقاً فى أن يستعملوا ما بأيديهم من الوسائل فى أى ميدان من ميادين العمل شاءوا ، ولا يكون إلا لهم أو عليهم كل ما يحصل نتيجة لمساعيهم من المنافع أو الخسائر . فكما أنهم يتحملون عواقب الخسارة كذلك لا ينبغى أن يُقيدوا بشىء من منافعهم ، ولهم الحرية التامة ليوسعوا فى إنتاج بضائعهم ويبيعوها بما شاءوا من الثمن القليل أو الكثير ويستخدموا ما شاءوا من عدد الرجال أجرة أو مشاهرة ، ويقبلوا فى أمر متاجرهم ومعاملهم ومصانعهم ما ارتضوا به من الشروط والتبعات ويضعوا ما شاءوا من الضوابط واللوائح . وينبغى أن تتم سائر المعاملات بين البائع والمشترى والأجير والمستأجر ، والخادم والسيد بالحرية الكاملة فيما يتعلق بالتجارة أو الصناعة ، وينبغى أن يجرى وينفذ فيهم كل ما اتفقوا عليه فيما بينهم من الشروط .

٣ — كون المنفعة الذاتيـة هى الدافع إلى العمل : إن الذى يعول عليه النظام الرأسمالى فى إنتاج المرافق الاستهلاكية وترقيتها هو طمع الأفراد فى فوائدهم الذاتية ومنافعهم الشخصية ، وهو مما قد فطر عليه كل إنسان ، وهو الذى يدفعه إلى بذل السعى والجهد فى أعماله . يقول المحامون للنظام الرأسمالى : إنه لا يمكن أن يوجد فى الحياة الإنسانية دافع إلى العمل أحسن من هذا ، بل ولا غيرُه . فعلى قدر ما تـقل من فرص المنفعة الذاتية من عمل الإنسان ، تفتر همته ويقل فيه جهده وسعيه . وأما إذا جعلت باب المنفعة الشخصية مفتوحاً وأكثرت من فرص الرقى الذاتى ليكسب كل فرد ما يقدر على كسبه بسعيه وجهده ، فهناك تجد كلّ فرد يكد ويجتهد بنفسه ليأتى من العمل أكثر وأحسن ما يستطيعه ؛ فهكذا يزداد الإنتاج بنفسه ويعلو ويرتفع مستواه ، وتستمر سائر الوسائل الممكنة تستعمل ، وتتسع للأدوات المنتجة دائرة استهلاكها اتساعاً على اتساعها ، ويكفل دافع المنفعة الشخصية وحده لينال من الأفراد للمصلحة الجماعية خدمة لا يمكن أن يسدوها إليها بطريقة أخرى غيرها .

٤ — المنافسة بين الأفراد : يقول أنصار النظام الرأسمالى : إن هذه المنافسة هى التى تحول دون أن تتجاوز أثرة الأفراد وحبهم لذواتهم عن حدودها فى الاقتصاد الحر ، وهى التى تقيم بينهم الاتزان والاعتدال . وذلك ما قد ضمنت به الطبيعة بنفسها ، فإنه إذا كان فى السوق الحرة عدد كثير من الذين ينتجون شيئاً واحداً وكذلك من التجار والمشترين ، فلابد أن يتعين لقيمة السلع معيار متناسب كما بينهم من المنافسة ، فلا تتجاوز منفعة الأفراد عن حدودها المشروعة ولا تقل عنها إلا فى أحوال شاذة مؤقتة . وكذلك لا يزال الأجراء والمستأجرون يقيمون لجعالاتهم ومشاهراتهم معياراً متزناً بأنفسهم بفضل المنافسة بينهم بشرط أن تـكون هذه المنافسة بينهم حرة عامة غير مضيقة بنوع من الاحتكار .

٥ — الفرق بين حقوق الأجير والمستأجر : وفى النظام الرأسمالى ينقسم رجال كل مؤسسة تجارية فريقين :

(ا) الملاك الذين ينشئون التجارة أو الصناعة ويديرونها ويتحملون على عواتقهم مسئولية المنفعة والخسارة فى كل حال .

(ب) والأجراء أو المستخدمين ، والذين لا علاقة لهم بالمنفعة أو الخسارة فى قليل ولا كثير ، وإنما يصرفون أوقاتهم وجهودهم ومواهبهم فى هذه التجارة أو الصناعة وينالون فى مقابلها جعلية معينة . فكثيراً ما تنهال على التجارة والصناعة خسارة على خسارة ، ولـكن الأجير لا يزال ينال أجرته المعينة ، وربما تبور التجارة ويفلس الملاك ، وأما الأجير فغاية ما يحدث له أنه يغادر هذا العمل أو المتجر ويشتغل فى غيره . فيذرك

المدافعون عن النظام الرأسمالى : إن هذه الصورة للمعاملة تقضى بنفسها أن منفعة التجارة أو الصناعة — بموجب العدل والنصفة — إنما يستحقها من يتحمل خسارتها ويعرض نفسه لتحمل الأخطار . أما الأجير ، فلاريب أنه يستحق جعيلته المشروعة التى تتعين فى السوق بالمعروف على حسب نوع عمله وكميته ؛ فلا لهذه الجعيلة أن تزيد بحجة أن التجارة — أو الصناعة — رابحة سائرة بالمنفعة ، ولا أن تنقص بحجة أن التجارة — أو الصناعة — قد أصابتها الخسارة . إن عمل الأجير يجعله مستحقاً لأجرته المتعينة فى كل حال ، ولكنه لا يجعله مستحقاً إلا لأجرته المتعينة فقط . وهذه الأجَرُ والجعالات لا تنقص ولا تزيد إلا حسب ذلك القانون الفطرى الذى به تنخفض أو ترتفع قيمة سائر السلع والبضائع فى السوق . فإن قل المستأجرون وكثر الراغبون فى العمل ، فلابد أن تنقص الأجرة بنفسها . وإن قل الأجراء وكثر الراغبون فى الاستئجار ، فلا بد أن تزيد الأجرة . ولا بد أن يعود على الأجير الماهر النشيط عمله بأجرة وافرة ، ولا يزال صاحب المعمل أو المتجر يستميله إلى نفسه ويعمل على جلب رضاه بالإنعام عليه وترقيته . وكذلك يجد الأجير ويكد فى الإجادة فى عمله وترقيته على حسب ما ينال من الأجرة ؛ فيكون مما يوده الملاك والمستأجرون أن ينفقوا قليلا ويربحوا كثيراً ، فيميلون — طبعاً — إلى الإقلال فى الأجرة . وبالجانب الآخر يكون مما يوده الأجراء والعمال أن تنسد حاجاتهم با كثر رفاه ورفاء ويرتفع مستوى معيشتهم شيئا فشيئا ؛ فهم دائما متطلعون إلى الاستكثار من أجورهم ، فمن الطبيعى أن ينشأ بهذا التضاد نوع من المشاكسة والمحاربة بين الأجراء والمستأجرين : إلا أن الأجر لا يزال قدر منها يتعين بسائق الفطرة ، ويرضى به كلٌ من الفريقين بالتفاعل بينهما ، وذلك كما يكون فى كل شأن آخر من شئون الدنيا .

٦ — التعويل على الأسباب الفطرية للارتقاء : يقول الحامون للنظام الرأسمالى : إنه إذا كان الربح فى التجارة كله يتوقف على قلة رأس المال وكثرة الإنتاج ، تظل مصلحة الرجل التاجر الذاتية نفسها تضطره إلى أن يختار للاستكثار فى إنتاجه أحدث وأحسن الطرق العلمية ، ويتعهد آلاته وماكيناته بالإصلاح والتنظيف ويقتنى المواد الخام على كمية وافية بثمن قليل ، ولا ينفك يُعمل فكره ورويته فى ترقية طرق تجارته وصناعته . فهكذا يظل يتحقق كل ذلك ويتم بطبيعة الاقتصاد الحر وما يكتنفه من الملابسات المخصوصة من غير تدخل خارجى أو حيلة متصنع ، ولا تزال القوانين الفطرية تستخدم جهود الأفراد ومساعى الطوائف الانفرادية ، وتنتفع منها فى الترقية والرفاهية الجماعية ، مما لا يمكن أن يتم بتدبير اجتماعى (Social Planning) على الوجه المراد ، فإن هذا تدبير فطرى لا ينفك قائما بعمله من حيث لا يشعر به أحد .

٧ – عدم تدخل الدولة : يقول أنصار هذا النظام : إنه لا يمكن أن يتم العمل على الفلاح والرفاه الاجتماعى على أحسن وجه حسب المبادىء المذكورة إلا إذا كان الأفراد أحراراً فى أعمالهم من غير ما ضغط ولا تقييد ، وقد وضعت الفطرة فى القوانين الاقتصادية تلاؤماً بحيث أنها إذا عملت – جميعاً – متحدة متعاونة ، أنتجت خير الناس ، أفراداً وجماعات أجمعين ، مع أنه لا يعمل ويسعى كل فرد إلا فى منفعته الذاتية ، كما قد تقدم بيان ذلك . من الطبيعى أن الأفراد كلما تراءى لهم جزاء أعمالهم وجهودهم فى صورة المنافع الشاملة غير المحدودة ، بذلوا كل ما أوتوا من قواهم ومواهبهم ليقتنوا أكثر ما يقدرون على اقتنائه من الثروة والأموال ، مما يكفل للجميع أن يصنع لهم من المنتجات والمصنوعات أحسنها وأكثرها . وإذا فصلت المنافسة العامة بين التجار والصناع والمهيئين للمواد الخام فى السوق الحرة ، اعتدلت الأسعار واتزنت الأثمان بنفسها ، وارتفع مستوى المنتجات وتبين بنفسه ما يحتاج إليه المجتمع من الأدوات ، فليس من عمل الدولة فى كل حال أن تتدخل فى العمل الفطرى لنمو الثروة وتخل توازنه ؛ وإنما من عملها أن تولد أحوالا تحافظ على الحرية الفردية محافظة شديدة ، وعليها أن تحقق الأمن وتقيم النظام والإدارة وتحافظ على حقوق الملكية وتوفى بالعهود بقوة القانون وتحمى البلاد وما فيها من التجارات والصناعات من الحملات والصدمات والأخطار الخارجية . ومن واجب الدولة أن تكون محققة للعدل فى البلاد مشرفة على أحوالها ساهرة على شئونها ، وليس من واجباتها أن تكون هى التاجر أو الصانع ، أو مالك الأرض ، أو لا تدع التجار والصناع وملاك الأراضى بتدخلها فى شئونهم أن يقوموا بأعمالهم ، كما يشاؤون .

علل الأسباب وأسبابه :

تلك هى المبادىء التى عرضت ، وأبدىء وأعيد فى ذكرها عند نشوء النظام الرأسمالى الجديد ؛ وإذ كان فيها جانب من الصدق مع نوع من المبالغة ، فقد جعلها أهلها مسلماً بها فى العالم عامة . والحقيقة أن هذه المبادىء ما كان فيها شىء جديد ، وإنما كانت هى كلها مما لم يزل يجرى عليه نظام الاقتصاد البشرى منذ أول أمره . وإن كان فيها شىء جديد فإنما كان ذلك فى تلك الشدة المتطرفة المبالغ فيها ، التى اختارتها طبقة البورجوازية فى تطبيق بعض المبادىء على اقتصاد عهد الانقلاب الصناعى . وزد على ذلك أنهم ما أنهضوا نظامهم كله على تلك المبادىء الفطرية التى قد مر ذكرها آنفا ، بل مزجوها بطائفة من المبادىء الخاطئة . ثم إنهم قد ضربوا الصفح عن مبادىء أخرى كانت ذات أهمية بالغة للنظام الاقتصادى الفطرى مثل ما كانت له مبادىء الاقتصاد الحر

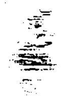
المذ لورة . وكذلك نفوا كثيراً من المبادىء التى عرضوها بأنفسهم لما انطوت عليه نفوسهم من الأثرة وحب الذات . فهذه الأمور الأربعة هى التى سببت تلك المفاسد التى ما زالت تتولد فى النظام الرأسمالى إلى أن تفاقم أمرها واستفحل شرها حتى قامت الدنيا فى وجهها ثائرة هائلة .

ففى ما يلى نستعرض هذه الأسباب على وجه من الإيجاز :

١ — إن القوانين الفطرية ، التى مازال هؤلاء القوم يستشهدون بها فى كل مرة تأييداً للاقتصاد الحر ، لا تصح إلى حد تلك المبالغة التى أرادوا أن يأتوا بها لا فى أقوالهم بل فى أعمالهم أيضاً . وقد صدق اللورد كينز (Kins) عندما قال « إن الدنيا لاتحكمها حكومة قوية من القوانين الخلقية والفطرية تحصل بها الموافقة بين مصلحة الأفراد الذاتية ومصلحة المجتمع الجماعية بنفسها ، ولايصح الاستنباط من مبادىء الاقتصاد أن الأثرة المتنورة دائماً تسعى فى الفلاح والإسعاد الاجتماعى ، كما لايصح القول بأن الأثرة دائماً تكون متنورة ، فإن الذى نراه فى أكثر الأحيان أن الذين يبذلون مساعيهم لأغراضهم الذاتية بصفة فردية ، يكونون بالغين فى الضعف والسفاهة حتى إنهم لايكادون يقضون أغراضهم فضلا عن أن تتم على أيديهم الخدمة المصلحة الجماعية خدمة لازمة أبدية . ولايقتصر الأمر على أنه لم تكن هذه الأقوال صحيحة من جهة العقل ، بل الذى شهدت عليه أعمال الرأسماليين من طبقة البورجوازية أنه لم تكن أثرتهم متنورة . وقد اجتمعوا على مصالح الجمهور المستهلكين والأجراء العاملين والحكومة المحققة للأمن والرفاهية وتآمروا على أن يحتجنوا لأنفسهم كل ما يأتى به الانقلاب الصناعى من المنافع والأرباح . فجاءت مؤامراتهم هذه مدحضة لأكبر دليل كانوا يقدمونه تأييداً للاقتصاد الحر ، وذلك أن الاتزان فى المنفعة بين الجميع يقوم بنفسه بتفاعلها الفطرى فى مابينها . ومن أجل ذلك اضطر الاقتصادى الشهير آدم سمث (Adam Smith) — وهو أكبر محام للاقتصاد الحر — إلى القول :

« قلما يجمع التجار وأهل الحرف والصناعات مجلس من المجالس لا ينتهى بمؤامرة بينهم خلاف الجمهور ، أو قرار لرفع أسعار البضائع ، حتى لا تكاد تخلو الحفلات العامة التى يتسنى لهم الاجتماع فيها من اقتراف مثل هذه الجريمة الشنيعة » .

وكذلك كانت دعواهم فى الملكية الشخصية وحرية السعى بأن الأفراد متمتعون تحت هذه العناوين بحقوق لاينبغى أن يضرب عليها حد من الحدود ، مبالغاً فيها إلى حد بعيد ، فإنه إذا تصرف الرجل فى ملكيته على وجه يمس معيشة ألوف من البشر ، أو اخترق لمنفعته الذاتية سبيلا إلى السعى والعمل يؤثر تأثيراً غير جميل فى صحة المجتمع



كله أو أخلاقه أو عافيته وراحته ، فما الموجب بأن يسمح له بكل ذلك ولا يضرب القانون عليه من الحدود مالايدع تمتع الأفراد بحقوقهم الذاتية أن ينقلب ضرراً على المصلحة الجماعية . ولقد بدأوا القول وأعادوه فى عدم تدخل الحكومة وجاوزوا به عن حدوده المشروعة حتى لم يمكنه الامتناع عن أن يأتى بما قد أتى به فعلا من النتائج السيئة والعواقب الموبقة ، فإنه إذا بدأ الأفراد الأقوياء يتآمرون باجتماعهم على الضعفاء الكثيرين ، ويستغلون ضعفهم استغلالا فاحشاً ، وظلت الحكومة ساكتة واجمة ؛ بل محافظة على مصلحة هؤلاء الأفراد الأقوياء فلا بد أن يؤول الأمر إلى الاضطراب والفوضى . ومن المعلوم أن الاضطراب إذا ظهر ، لايتقيد لظهوره بالطريق المستقيمة المشروعة .

(للبحث بقية)



فقه المثل الأعلى

« . . فالخير فى الإسلام ليس خيراً إلا إذا ابتُغِىَ به وجه الله ، والعنصر الطيب ليس طيبا إلا إذا استنار بمعرفته عز وجل . . .

وهذا مذهب جليل فى تقدير الرجال والأعمال : يصحح الأوضاع . . . ويسمو بالمجتمع إلى مستوى رفيع من الكمال ؛ إذ يجعل الأقوال والأفعال منوطة بغاية واحدة ، ومثل أعلى هو الله سبحانه . . . قالت عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها : يارسول الله إن عبد الله بن جدعان كان يطعم الطعام — فى الجاهلية — ، ويفعل كيت وكيت من المعروف ، أينفعه ذلك عند الله ؟ قال : «لا ؛ لأنه لم يقل يوماً : ربِّ اغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

البهى الخولى

من كتاب آدم عليه السلام

« تحت الطبع »

الطب عند القدماء

للأميرالاى الدكتور أحمد الناقة

مدير المستشفى العسكرى المصرى

(١)

منذ آلاف السنين نشأت بين النهرين فى العراق ، وعلى ضفاف النيل فى مصر حضارة عالية ازدهر فى ظلها الطب وأقبل على التفقه فيه الملوك والكهنة وأهل الفكر .

وتدل الكتابة والنقوش فى المعابد والتماثيل والجثث المحنطة ، ثم البرديات على أن أمراض الإنسان لم تتغير كثيراً ؛ فتصلب الشرايين والبلهارسيا والدرن وأمراض العظام — مثلا — كانت معروفة منذ فجر التاريخ ، وكذلك عرف التخصص فى فروع الطب المختلفة كالباطن والجراحة وأمراض النساء والأطفال والرمد والأسنان .

وإلى عهد قريب كان العالم يفاخر بأنه أتى فى الطب بما لم تستطعه الأوائل حتى سنة ١٩٣٠ حين أخذ برستد يذيع بعض ما اهتدى إلى فهمه من بردية سمث التى اكتشفت بالأقصر سنة ١٨٦٢ فاتضح أن أسلافنا هم الذين أرسوا قواعد الطب والدواء ، وهى التى ادعى المتأخرون لأنفسهم فضل السبق إليها ، وهم لا يعلمون أنهم كانوا وما زالوا مسبوقين ؛ فقد عرف آباؤنا طب العوض (الهرمون) حين عالجوا الأعضاء المريضة بمثلها من أعضاء الحيوان ، وعرفوا الحيويات (الفيتامينات) حين استنبتوا بذور الحلبة والفول والترمس وأكلوها نابتة وحين أضافوا الخميرة إلى الطعام والشراب ، وعرفوا المطهرات الفعالة حين عالجوا الجروح بضمادة واحدة لم يغيروها أربعة أيام سويا التأم فيها أكثر الجروح بلا قيح . أما المطهرات التى حنطت الجثث آلاف السنين فقد عجز العلم عن كشف سرها إلى اليوم .

وكان بعض الأقدمين يعتبر الكبد مصنع الدم وأصل الحياة . ولكن مصر جعلت التنفس أهم مظاهر الحياة واعتبرت الدم مصدر القوة ، واتخذت من لونه الأحمر طلاء للجثث المحنطة ، ومن بعض الحجر الأحمر دواء ووقاية من كل سوء .

وبلغ التشريح غاية التقدم فى مصر من طول ما حنطت الأجساد وشرحت الأضاحى فى الأعياد ، فقد عرف أن القلب مجمع الدم ودافعه إلى أنحاء الجسم فى الأوعية الدموية التى تنبض مع القلب ، وأجاد الجراحون التشريح .

وأسباب المرض كانت إما ظاهرة كطعنة الرمح ولدغة العقرب ودودة البطن فتعالج بالأدوية ، وإما خفية فتعالج بالرقى والتعاويذ والكهانة . وهنا كان مجال السبق العجيب فى الطب النفسانى . وفى الهيروغليفية يرمز لشق الأمراض بصور الحشرات والهوام والديدان . وعرف تطور الحيوان من بويضه إلى علقة إلى مضغة ثم التدرج إلى الخلق السوى ، وعرفت أورام لا نعلمها نحن .

وفى التشخيص فرقوا بدقة مدهشة بين أمراض الباطن والقلب وأمراض النساء وأمراض الحلق وأمراض العين ، واهتدوا إلى أنواع النبض ، وعرفوا وسائل الفحص بالمشاهدة والجس والقرع والسمع كما يفعل أطباء اليوم .

وكان العلاج مزيجا من الفطانة والكهانة . وقد غلبت الفطانة بالملاحظة الدقيقة وأصالة التجربة فى عصور التقدم ، وطغت الكهانة والسحر فى عصور التأخر . ومازلنا نجهل مدلول كثير من الأدوية التى جاء ذكرها فى البرديات . وقد اتخذوا الدواء من الأعشاب والبذور وأجزاء الحيوان والمعادن والأملاح ، وابتكروا كل أشكال الدواء مثل : شراب. حبوب .لبوس . حقن شرجية. لبخات .مراهم. غسول . وأوقفوا النزيف بأدوات معدنية محماة فى النار على نحو ما يفعل المحدثون بالمبضع الكاوى .



وبراعتهم فى التشريح جعلت منهم جراحين مهرة ابتكروا أدوات الجراحة من الحجر فالبرونز فالحديد ، وأحسنوا استئصال الأورام وعلاج الجروح والحروق وأجروا ختان الذكر والأنثى وقد خلفوا لنا فى بردية سمث وصف خمسة وأربعين نوعا من الأمراض والأورام تشفى بالجراحة ولم يهابوا جراحة الرأس والصدر التى لم نجرؤ على بعضها إلا منذ عهد قريب . ونظموا غذاء المريض وسبروا غور الجرح ، ووضعوا المراهم والقوابض وضمدوا الخلع ، وجبروا الكسر بإتقان ، وعالجوا كسر الرأس وأزالوا فتات العظم من المخ بأدوات رافعة دقيقة ، وضموا أطراف الجروح بإحكام قبل تضميدها وعرفوا أن المخ مركز العقل والحس وأن الحبل الشوكى مركز الحركة . وكان عجباً أن اهتدوا إلى ضم حافتى الجرح وإلى جراحة التجميل وإزالة التجاعيد وإلى الأسنان الذهبية

أما الطب الاجتماعى الذى مازال غير معروف فى أكثر البلاد ولامألوف فى أقلها فكان قدماء المصريين يعرفونه ويطبقونه فى قواعد دفن الموتى ، والنظافة الشخصية البالغة حد الاستحمام أربع مرات فى كل يوم وليلة وقص الشعر كل ثلاثة أيام ولبس الأبيض النظيف ، وتناول الملينات كل شهر ، ولزوم قواعد الصحة فى ملامسة النساء . وفحص الحيوانات قبل ذبحها وتحريم لحم الخنزير ، وترشيح ماء الشرب أو غليه ، ونظافة

المسكن ورعاية الطفل ولفه بقماش نظيف بغير أربطة ولا ملابس تعوق نموه وحركته حتى يبلغ سن الخامسة وإعطاؤه لبن البقر والخضر بعد الفطام وتيسير لعبه بالصوالج والأكر والحبال . ولم يهملوا فن التزين فاستعملوا العطر وصبغة الشعر والأظافر وأحمر الخدين .

وأما التأمين والتأميم الصحى فقد نسقته هيئة طبية محترمة كفلت العلاج للناس كافة فى السلم بأجر قليل ، وفى الحروب والرحلات بالمجان ؛ على أن تعول الأمة الأطباء الذين يرعون صحتها وكانت الرقابة شديدة على الأطباء والصيادلة حتى جعلوا الموت جزاء وفاقا لمن ثبت أنه قتل مريضاً عن جهالة .

وليس فى تاريخ الطب كله ما هو أثمن من برديق سمث وأبرز اللتين اكتشفتا بالأقصر سنة ١٨٦٢ و سنة ١٨٧٣ وهما موسوعتان فى الجراحة والطب ضمتا من العلم مازاد على القدم جدة وروعة . وقد كانت بمصر مدارس طبية منظمة على أسس علمية سليمة يقوم عليها نطس الأطباء ومهرة الجراحين الذين مارسوا المهنة لاطمعا فى مال أوجاه ، ولكن رغبة فى العلم والخير وحسبة لوجه الله .

وإن أروع مايوحى به تاريخ الطب القديم هو ذلك الإدراك الشامل العميق لأسرار الحياة الجسمانية والنفسية والاجتماعية ، وتلك الرعاية المستنيرة لصحة الفرد والجماعة . ولاريب فى أن هذه المعرفة الواسعة هى تراث السلف فى العصور الخالية التى قد ترجع فى القدم آلاف السنين ، وما أضافه الخلف على ذلك التراث حتى زمن المؤلفين لأنه لا يمكن أن يبرز كل هذا العلم فجأة فى أذهانهم مهما أوتوا من الحكمة وفصل الخطاب .

وحين توالى الغزاة على مصر ذوى فيها الطب ، وانتقل أكثره إلى الإغريق .

وإذن فمصر منذ القدم قد شادت هيكل الطب ثم زادته وصانته بما اتسمت به حضارتها من التجديد والتخليد : التجديد الرائع وأصالة الرأى ودقة الملاحظة فى عهود الهدوء والاستقرار ، والتخليد والتسجيل بالكتابة والنقش والنحت لكى تقاوم أحداث الزمان فى عهود الفوضى والدمار . ونشاط الأمم كالكائنات الحية ينمو ويكثر فى الرخاء ، ويذوى ويضمر فى الشدة أسوة بالزروع ذات البذور ، والأشجار ذات الثمار وكذلك الأميبا وأكياسها ذات الأسوار .

هذا تاريخ أمة مجيدة أضاءت للدنيا مشعل العلم والعرفان ، وعلى الأبناء أن يعيدوا سيرة الآباء ؛ فيعودوا إلى حمل المشعل وجعله سراجا وهاجا يخرجون به الناس كافة من ظلمات الأثرة والخصام ، ويحفظون للعالم الحضارة والسلام .

مع العارفين

الإمام الممتحن . أحمد بن حنبل

(٥)

وكان المعتصم قد أعجب بأحمد بن حنبل فلما خلا به قال :

أما تعرف صالحاً الرشيدى ؟ كان مؤدبى ، وكان فى هذا الموضع من الدار جالساً مرة ؛ فتكلم وذكر القرآن فخالفنى ، فأمرت به فسحب ووطىء ، ولم يشفع له أنه معلمى . . . ولكنى لا أفعل بك ما فعلته به . . . إننى لم أكن أعرفك إذ لم تكن تأتينا مع من يأتى . . .

فقال عبد الرحمن بن إسحاق : يا أمير المؤمنين ، إنى أعرفه منذ ثلاثين سنة ، إنه يرى طاعتك ، والحج والجهاد معك ، وهو ملازم منزله . .

فقال المعتصم : والله إنه لفقيه ، وإنه لعالم ؛ وإنى ليسرنى أن يكون معى يرد على أهل الملك . . ولئن أجابنى إلى شىء مما أدعوه إليه لأطلقن عنه القيود بيدى ، ولأركبن إليه بجندى ، ولأودِّمنَّه حتى أطأ عقبه . .

أحمد بن حنبل يسمع كل ذلك وهو صامت . .

فيلتفت إليه المعتصم ويقول : ويحك يا أحمد ، ما تقول فيما أعرض عليك ؟

فقال أحمد بن حنبل : يا أمير المؤمنين ، اعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ! ! .

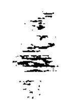
فلما طال المجلس ضجر المعتصم وقام ، وأعيد الإمام إلى معتقله ، وذهب إليه رجلان من أتباع ابن أبى دؤاد لمناظرته لعله يجيب إلى خلق القرآن . . . وجاءت مائدة ، فأكل الرجلان ، وأما أحمد فجعل يتعلل حتى رفعت . . .

وذهب أحمد بن أبى دؤاد إلى الإمام فى معتقله ، وقال له : والله لقد كتب اسمك فى السبعة الذين قتلوا ولكنى محوته ، ولقد ساءنى أخذهم إياك . . . واعلم أنه ليس السيف ؛ إنه السوط ، والضرب بعد الضرب . . . فانظر ما تقول ؛ وإنى لا أرى لك

إلا أن تجيب أمير المؤمنين ؛ فلا يزيد الإمام على أن يقول إيتونى بشىء من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . . .

وخرج أحمد بن أبى دؤاد ، ولم يلبث أن جاء رسول ينادى أحمد بن عمار صاحب الدار التى اتخذت معتقلا للامام ، فخرج معه وعاد يقول : إن أمير المؤمنين يقول لك أجبنى حتى أجىء إليك بنفسى فأطلق عنك بيدى . . . فلا يزيد الإمام على قوله : إيتونى بشىء من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . .

وما زالت الرسل تأتى أحمد بن عمار ، فيذهب لمقابلة الخليفة ليعود إلى الإمام حاملا رجاءه حتى انقضى النهار وشطر من الليل ، فلما كان اليوم الثانى أدخل على المعتصم وجرت المناظرة بحضرته ، وكانوا يهربون من منازلة ابن حنبل فى ميدان الكتاب والسنة إلى ميدان الفلسفة ، فيقول لهم : لا أدرى ما تقولون ، فأتونى بشىء من كلام الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو خبر أو أثر . . ! فيقولون يا أمير المؤمنين : إذا توجهت له الحجة علينا وثب ، وإذا كلمناه بشىء يقول لا أدرى ما هذا . . . فيقول المعتصم : يا أحمد إنى عليك شفيق . . . ويقول أحمد بن أبى دؤاد : ياأمير المؤمنين والله لإن أجابك لهو أحب إلىّ من مائة ألف دينار ، ومائة ألف دينار ، ومائة ألف دينار ، فيعد ما شاء الله من ذلك . . . !



ولما كان الزوال أمرهم المعتصم بالانصراف ، ولم يبق إلا أحمد بن حنبل وعبدالرحمن ابن إسحاق ؛ ودار الكلام بينهم : المعتصم يتلطف ويلين ، وعبد الرحمن يذكر مناقب أحمد وفضله ، وأحمد يقول بينى وبينهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا أجيبهم إلا إلى شىء منها ، وطال المجلس فقال المعتصم :

أندعو أحمد بن أبى دؤاد ؟

فقال أحمد بن حنبل : ذلك إليك يا أمير المؤمنين .

فحضر ابن أبى دؤاد واشترك فى المناظرة ، فلما امتد المجلس على غير فائدة لهم قام المعتصم . وأعيد الإمام إلى معتقله ، وما لبث أن دخل عليه الرجلان اللذان دخلا عليه بالأمس لمناظرته ، وجعلا يكلمانه حتى حان وقت الإفطار فجىء بطعام على نحو مما أتى به فى الليلة السابقة ؛ فأفطر الرجلان وجعل الإمام يتعلل . . .

فلما رفع الطعام جاء رسول الخليفة يستدعى أحمد بن عمار صاحب دار المعتقل فذهب وعاد فقال للامام : يقول لك أمير المؤمنين أجبنى حتى أحضر إليك بنفسى ... الخ فلا يزيد على أن يقول لهم : كتاب الله وسنة رسوله .

وكانت بغداد خلال هذين اليومين شعلة نار متقدة تملؤها الإشاعات والهرج والمرج ، وامتلأت سامرا — مقر قصر الخلافة — بوفود عامة أهل بغداد وخاصتهم فصارت بهم كالبحر الزاخر ؛ وليس منهم رجل إلا وعطفه مع أحمد بن حنبل ، وسخطه على الخليفة وعلى أحمد بن أبى دؤاد وسائر المعتزلة . . وكانت أنباء ذلك كله تبلغ الخليفة فيشعر كأن رياحا عاتية توشك أن تهب عليه فتقتلع عرشه وتهوى به إلى مكان سحيق ، فيأخذه الخوف ويلجأ إلى ملاينة الإمام لعله أن يجيب فتنهى المحنة وتهدأ ثائرة الناس ، ولكن الإمام لا يعنيه ملاينة الخليفة ، ولا مؤازرة الجماهير ، فالأمر لديه أكبر من ذلك ؛ هو احتفاظه لله بما استرعى من أمانة ، فإن حفظ وصبر كان قدومه على الله قدوماً كريماً وله أجر ما امتحن ؛ وإذا فرط وضيع كان قدومه على الله قدوماً مهيناً ، وحمل بين يديه تبعة تلك الجماهير التى ستقلده فيما يقول من خلق القرآن .

وجعلت رسل الخليفة فى تلك الليلة العاصفة تأتى لاستدعاء أحمد بن عمار ، وجعل أحمد بن عمار يمضى ويأتى بكلام من أمير المؤمنين ، دون أن يثمر ذلك شيئا ؛ فجاء أحمد بن أبى دؤاد ، فقال : يابن حنبل ، إنه قد حلف أن يضربك ضرباً ، وأن يحبسك فى موضع لا ترى فيه الشمس . ! فقال أحمد بن حنبل : فماذا أصنع ؟ قال : تجيب الخليفة إلى ما يدعوك إليه ! ، فقال : لا . . إلا بشىء من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . .

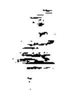
وباتت بغداد وسامرا ساهرتين تتحدثان بمحنة الإمام الجليل . . أما الإمام فقد غفا غفوة ، قام على أثرها نشيطاً إلى وضوئه وتهجده وقراءته ، فلما صلى الفجر وأسفر النور بصبح اليوم الثالث أحست بصيرته شيئا لا تراه الأبصار . . أحست مقادير المحنة كأنها شاخصة فى الفضاء تنتظر أن تنفذ فيه ، فقال : « لخليق أن يحدث فى هذا اليوم من أمرى شىء » .

قال أحمد بن حنبل : وكنت قد أخرجت تكتى من سراويلى ، فشددت بها قيود الحديد فى قدمى أحملها بها إذا توجهت إلى الخليفة ، فلما كان صبح يوم المحنة قلت لخليق أن يحدث فى هذا اليوم من أمرى شىء ، وكنت بلا سراويل ، فخشيت إن حدث شىء أن أتعرى ، فأعدت التكة إلى سراويلى وشددتها على ، وطلبت من أحد الموكلين بى خيطاً أشد به الأقياد . . . !

وعلا النهار ، وأصيب المعتصم بشعور مضطرب ، فهو يريد أن يبطش بابن حنبل ، ولكن هيجة الجماهير تخيفه فتنقبض يده عما يريد . . ولكنه الفارس المعلم الذى لم

يعتد أن يرى نفسه جباناً فى موقف من المواقف ، فكيف يستر ضعفه هذا اليوم عن أنظار من حوله ؟ ! لقد هداه شعوره المضطرب إلى أن يملأ ردهات القصر وساحاته ومداخله ومخارجه بصنوف الجند حاملين ألوان الأسلحة لابسين لأمة الحرب الكاملة ثم أنفذ أمره فى رجلين ممن لايقولون بخلق القرآن فقتلهما ، وخيل إليه أنه قد سيطر على الموقف وظفر بإعجاب من حوله ، وحسب أن ذلك خليق أن يلقى فى روع ابن حنبل أن الأمر جد لاهزل ، فينثنى عن عناده ويجيب إلى ما يدعوه إليه !

قال الإمام أحمد : فلما شددت قيودى بالخيط الذى جاءوا به طلبت إلى مجلس الخليفة فجعلوا يمرون بى من ساحة إلى ساحة ، وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم السياط ، وغير ذلك من الزى والسلاح وقد حشيت الدار بالجند ولم يكن فى اليومين الماضيين كبير أحد من هؤلاء ؛ حتى إذا صرت إلى الخليفة قال : ناظروه



وجرت المناظرة على نحو ما جرت عليه فى اليومين السابقين ، حتى إذا جاء وقت الزوال خلا بى وبعبد الرحمن ، فقال لى : ويحك يا أحمد ، أنا والله عليك شفيق ، وإنى لأشفق عليك مثل شفقتى على هرون ابنى ، فأجبنى . . فقلت : يا أمير المؤمنين اعطونى شيئاً من كتاب الله عز وجل ، أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فلما طال المجلس ضجر وقام .

وكان يريد أن يصرف المحنة عن أحمد لما يجد من الخوف على عرشه ، ولكن ابن أبى دؤاد قال له : يا أمير المؤمنين : إن تركته قيل إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله » . . وقال إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد : يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن يخلى سبيله فيقال : إنه غلب خليفتين » فعند ذلك حمى الخليفة واشتد غضبه وأقبل على أحمد بن حنبل وقال : لعنك الله طمعت فيك فلم تجبنى . . . خذوه اخلعوه ، اسحبوه .

قال الإمام أحمد : فأخذت وسحبت وخلعت وجىء بالعقابين أى عدة العذاب التى يشد إليها المبتلى ، وكان معى شعرتان من شعر النبى صلى الله عليه وسلم فصررتهما فى كم قميصى ، فقال له إسحاق ابن إبراهيم : ما هذا المصرور فى كمك ، فقلت : هما شعرتان من شعر النبى صلى الله عليه وسلم ، فأراد بعض القوم أن يحرق القميص ، فنهاهم عنه . . فلما شددت إلى العقابين ، وجىء بالسياط نظر إليها الخليفة فلم تعجبه فأمر بأشد منها وأقوى ، فجىء له بما أراد ، وأحضر الجلادون الغلاظ ، فقلت ياأمير المؤمنين ، الله الله ،

بم تستحل دمى وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ولم آت شيئاً مما يهدر الدم . . ؟ يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدى الله كوقوفى بين يديك !

قال الإمام أحمد : فكأنه أمسك ومال إلى صرف المحنة ، ولكنهم لم يزالوا به يقولون له : يا أمير المؤمنين : إنه ضال مضل كافر ، وإن دمه فى رقابنا ، حتى أقنعوه بإنفاذ المحنة ، فجىء له بكرسى وأحمد بن أبى دؤاد واقف على رأسه ، فتقدم الضارب الأول ومعه سوطه ، فقال له المعتصم : شد قطع الله يدك ! فشد الرجل بسوطين ثم تنحى ؛ وتقدم جلاد آخر ، وآخر ، كل يقول له المعتصم : شد وأوجع قطع الله يدك ، فيشد كل بسوطين ويتنحى ، وتوالت السياط كأنها جمر جهنم ، وأحس أحمد بتكة سراويله تحور خيوطها تحت الضربات القاطعة فلم يبق فيهما إلا خيط أو خيطان فطمح ببصره إلى السماء وقال : ياغياث المستغيثين ، يا إله العالمين ، إن كنت تعلم أنى قائم لك بحق فلا تهتك لى عورة !! وثبت الخيط الرقيق لما لم تثبت له خيوط التكة كلها ، وستر الله سوأة الإمام أن تنكشف .. قال الإمام : واستمر الجلادون يشدون بسياطهم حتى أغمى على . . فأمسكوا حتى أفقت وسكن عنى الضرب فقام إلى المعتصم وقال : ويحك ياأحمد ، أجبنى حتى أطلق عنك بنفسى ؛ وهم محيطون به ، فيقول لى أحدهم : ويحك ، إمامك قائم على رأسك فأجبه ، وينخسنى آخر بقائم سيفه ويقول : تريد أن تغلب هؤلاء كلهم ؟ فأقول : لا أجيب إلا لشىء من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .. فيعود المعتصم إلى كرسيه ويقول للجلاد : شد وأوجع قطع الله يدك ، وأخذ الجلادون يتبع كل منهم سابقه ، كل يضرب سوطين ويتنحى لمن بعده ، حتى يشتد بى الضرب ويعظم الألم فيذهب عقلى ويغمى علىّ ... حتى إذا أفقت وعاد إلى عقلى قام إلى بنفسه وقال مثل مقالته . فلا أجيبه إلى مايدعونى إليه ، فيقول عبد الرحمن بن إسحاق لى : من صنع بنفسه من أصحابك فى هذا الأمر ماصنعت أنت بنفسك ؟! هذا يحي بن معين ، وهذا أبو خيثمة ، وهذا فلان ، وهذا فلان ، وجعل يعدد أسماء من أجاب ، فلا أجيبه إلا بنحو مما كنت أقول لهم ... فقال المعتصم للجلاد شد وأوجع ، فأقبل على الجلادون كل يضرب سوطين ويتنحى ؛ ثم جاء إلىّ الثالثة فدعانى فلم أعقل ماقال من شدة الضرب ، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلى فلم أحس به ؛ فأرعبه ذلك من أمرى ... وكان النبأ قد تسرب إلى الجماهير الزاخرة ؛ فضج الناس وهاجوا ، وعظم عليهم الخطب فخاف المعتصم ، وأمر بإطلاقه لفوره ، قال ميمون بن أصبغ : «أخرج أحمد بعد أن اجتمع الناس وضجوا حتى خاف السلطان » وقال المعتصم بعد أن أطلقه : « لو لم أفعل ذلك لوقع شر لا أقدر على دفعه » .

قال الإمام أحمد ، فلما أفقت لم أشعر إلا وأنا فى حجرة من بيت وقد أطلقت الأقياد من رجلى وكان ذلك فى اليوم الخامس والعشرين من رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين .

وحمل من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد ، وهو صائم فأتوه بسويق ليفطر من الضعف فأبى ، وأتم صومه ،ولما حضرت صلاة الظهر صلى معهم فقال له ابن سماعة القاضى : « وصليت فى دمك ؟ » فقال له أحمد : قد صلى عمر وجرحه يثعب دماء » . فسكت . . .

* * *

وعاد أحمد إلى منزله لأول مرة بعدأن غادره منذ أكثر من ثمانية وعشرين شهراً ، وجاءه الجراح من قبل الخليفة يعالج له جراحه ، وكان المعتصم يخشى أن يصاب أحمد بأذى من تلك الجراح ، فكان يسأل عنه نائب بغداد كل يوم ، وكان النائب يرسل من يسأل عنه كل يوم ، فلما شفى فرح المعتصم وسكن خوفه على ملكه .

وسما أحمد عن الحقد والضغينة ، فلم يذكر أحداً ممن آذوه بسوء ، وجعل كلا منهم فى حل إلا أهل البدعة ، فقال له ابنه صالح فى ذلك ، فقال يا بنى : «وليعفوا وليصفحوا» ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك ؟ وقد قال تعالى : « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » ، فإذا كان يوم القيامة وجثت الأمم بين يدى رب العالمين ، نودوا : ليقم من كان أجره على الله ! فلا يقوم إلا من عفا فى الدنيا ، وإنى لأرجو أن أكون واحدا منهم ! !

رحم الله الإمام ، لقد كان إماما فى كل مكرمة !.

رجاء . . .

على حضرات الذين بيدهم إيصالات الاشتراك فى كتاب آدم عليه السلام أن يتفضلوا — مشكورين — بتقديمها أو بتقديم قيمتها لحضرة الأخ محمد عمر بالمركز العام للإخوان المسلمين فى مدة غايتها آخر شهر ديسمبر سنة ١٩٥٢ ؛ إذ سيصدر الكتاب ــ بإذن الله ــ فى هذا التاريخ ، وسيباع بعد ذلك بمبلغ ١٢٠ مليما

إلى نفخة الصور :

الأرض

إلى أرض النيل في عهدها الجديد

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

بين ذُلِّ الثرى ، ودمعِ الحُفاةِ   هبَّت الأرضُ من عميق السُّباتِ

نُفِخَ الصُّورُ في رباها .. فقامت   تحصُدُ الظُّلمَ في صدور الطُّغاةِ

ضربَ اللهُ ليلَها بضُحى البعـثِ ..   فضجَّتْ قبورُها بالحياةِ

وأفاقت من غَشْيَةِ الأُفُقِ المَلْـ   ـطومِ بالسَّوْطِ من جميع الجهاتِ

صَرَخاتُ الرِّياحِ في الفَلَواتِ   وعُواء الجراحِ في المُهُجاتِ

وبكاء القُطْعانِ وهي تناجي   ربَّها بالسَّرائرِ المُوجَعاتِ

تتشكّى .. فيَشْمَخُ السوطُ في الجَـوِّ ..   فتَغضِي شقيّةَ النظراتِ

نَهَرَتْها السنينُ من عهد « فِرْعَوْ   نَ » وألقتْ بها على الطرقاتِ

باحثاتٍ عن لُقمة العيش فيها   عافَهُ العيش من قديم الفُتاتِ

شارباتٍ دموعَها .. آكلاتٍ   يأسَها من حوافرِ الظُّلُماتِ ..

مَوْكِباً إثْرَ موكبٍ .. في رماد الـ   ـبُؤْسِ تمشي حزينةَ الخُطُواتِ

وهْيَ ما بين جازرٍ وذبيحٍ   حَسْرَةٌ في محاجرٍ ذاهلاتِ

تنظرُ الظلمَ وهوَ ينحرُ فيها   نظرَ العُمْرِ للحُتوفِ العَواتي ..

لا تطيقُ الكلامَ .. لا تستطيع الـ   ـبَثَّ حتى بهمسة الزَّفَراتِ ..

قُيِّدَتْ .. ثم أُخرِستْ .. ثم سِيقَتْ   للأسى ، للأنين ، للحَسَراتِ

يَشهقُ الريفُ في ثراها بشكوا   هُ .. فتُرْديه أفتكُ الطَّعَناتِ !

مِن قديم العصُورِ ، وَهِيَ تُهاتى بعويل الرياح والسَّافياتِ
والشَّواديفُ فى هواها تُغَنى بدموع المضَيَّعينَ العُراة . . .
خدَعُوها بخُضْرَة الزَّرْع واليَنْبُوعُ يجرى والسحْرُ سحْرُ النَّباتِ
وطيورُ الصباح يا أرضُ تشدو فاسمعيها . . ورَدِّدِى النغمَاتِ
ورعاةُ الأغنامِ يا أرضُ آتينَ . . فَغَنِّى ، وهَلِّلِى للرُّعاةِ . . .
وانظُرى القانعَ المتوجَ بالشَّمسِ ، أميرَ الحقول والربَوَاتِ
أزرقُ الثَّوْبِ ، أبيض القلب راضٍ مطمئنٌ الشقاءِ والنَّكَبَاتِ
خَدَعُوها . . وخادَعُوهُ . . فأحْيَاها . . ولم يَجْنِ غيْرَ هذا المواتِ !!
انظُرِيه يمسُّ غافلةَ الطِّينِ فيأتى بأغرب المُعْجزاتِ
راكعاً فى الحقول ، والنَّخْلُ حَوْلَيه ، كقومٍ تهيَّأوا لِلصَّلاةِ . . .
يضربُ الفأسَ باكياً . . فترينَ الحَقْلَ فيها مُهَدَّلَ الثمراتِ
وترينَ الأعوادَ ، والسُّنبلَ المتَّئِدَ ، والبُرَّ موكباً من حياةِ
ساقهُ جائعاً لطاغينَ . . ردُّوهُ إلى الكوخ جائعَ اللَّفتَاتِ
يتشهَّى الوُعُودَ ، والتمرَ المَوْعُودَ من كل نقْرَةٍ فِى حَصاةِ
وعَلَى وجهه أساطيرُ ظُلْمٍ حَيَّرَتْ نارُهَا عقول الرُّوَاةِ . .
فسِّرِيها يا أرضُ . . إنى من العَجْزِ تَعَبَّدْتُها عَلَى نغماتى
سقَتْ فيها النشيدَ فى ظلمة الكوخِ بُكاءً مسحَّرَ النغماتِ
فاكْشِفِى أنتِ سرَّها . . واترُكيها بين أحزانها وسِمعِ الحياةِ
ازأَرِى، واصرُخى، وضجِّى . . فقدطالَ بجنبَيْكِ دَسُّ نار الشكاةِ
طال فيكِ الهوَانُ ، والذلُّ ، والتَّسْبيحُ للغارقين فى الشهواتِ . . .
كلُّ ذى شاربٍ عُتُلٍّ تمطَّتْ ذِرْوَتاهُ عَلَى زَنيم الصِّفاتِ
تخِذَ الخَيْلَ زينةَ الظلم حتى زايَلَتْها الأنسابُ فِى المكْرُماتِ

شــدَّ أرسانها ، وزمجرَ لا لِلْـــحرْبِ . . بل للفخارِ والتُّرَّهاتِ
عَرَقُ الـكادِحِينَ خَمرٌ بكَفَّيـــهِ . . وأنفاسُهمْ زَميرُ الشُّقاةِ
خَبَّ فى البغى والمظالِم حتَّى أعثرَتْهُ فواجىءُ الحادثاتِ !
قَرَعَ الحقُّ بابه . . فإذا الظَّلْـــمُ من الرَّوْع ذرَّةٌ فى فَلَاةِ . .
وإذا الظالمونَ صَرْعى . . عليهم كفَنُ الظلم شائهَ المخزياتِ !
قرعَ الحقُّ بابَه . . فإذا الطَّا غُوتُ وَهْمٌ عَلَى بقايا رُفاتِ
وإذا قصَّــة المواكب والأسْـــيادِ تَهْوى ذليلةَ الـكلماتِ !
قَرَعَ الحقُّ بابَه . . فإذا الأرْ ضُ حواليْهِ بغتةٌ للطُّغاةِ
وظلامٌ لـكل باغ ، ونورٌ للمساكين ساطعُ الرَّحماتِ . .
بَعْدما شابت الرزايا على مِصْرَ . . أتتها السَّماءُ بالنَّجداتِ
دهَمَ الفجْرُ ليْلَها بضِياءٍ مِنْ أكُفِّ المدرَّعين الـكُماةِ
يَحْمل الحقَّ . . والحياةَ . . لشعب أوْرَدُوهُ مهاوىَ التَّهْلُـكاتِ ! !
ذاد عنه الأسَى . . وكان على الأكـــواخ صبْرًا مدمْدِمَ اللَّعناتِ
ذاد عنه الرُّشَى . . وكانت ثعابيـــنَ جُحورٍ تجبَّرَتْ لِلْحُواةِ . .
عشِقَتْ مَزْحَفَ الصدورِ ، فراحتْ تتشهَّى الضمائرَ الغافياتِ . .
ذاد عنه الهوان ، وهوَ دخانٌ راح يُذْرى خوافِقَ الشائناتِ
ومضَى يَهْدِمُ الصروحَ العَواتى مِنْ بُروجِ المفاسدِ الغاشماتِ
لم يكَدْ يَزْأرُ النَّفيرَ على الشَّطَّيْـــنِ حتَّى تبرَّجَتْ للشَّتاتِ
وتهاوَتْ أسوارُها ، وتلاشَتْ مِنْ ذُراها كبائرُ العَظَماتِ . .
جَلَّ رَبِّى يأيُّها الشعبُ . . هذا يَوْمُكَ الحَىُّ بعد طول المَماتِ
فانفُضِ الذلَّ عن نواصيك . . وارفع وجْهَكَ الحرَّ فى سماء الحياةِ
واشْهَدِ الأرضَ ، وهى تشمخُ كبراً برُباها على قبور الطُّغاة . . .

(١)

« سبحان ربى الأعلى »

للأستاذ عمر بهاء الدين الأميري

أيُّ سِرٍّ يُودِى بِدُنيَا حُـدودِي   كُلّما هِمْتُ فى تجـلِّى سُجُودِى
كَيْفَ تَذْرُو « سُبْحانَ رَبِّى » قُيودِى   كَيْفَ تَجْتازُ بِى وَراءَ السُّدُودِ
كَيْفَ تَسْـمُو بِفِطْرَتِى وَوُجُودِى   عَنْ مفاهِيمِ كَوْنِ المَعْهُودِ
كَيْفَ تَرْقَى بِطِينَتِى وَجُمودِى   فِى سَمْوَاتِ عَالَمٍ مِنْ خُـلُودِ
أتُراها رُوحاً مِنَ المَعْبُودِ   قد جَلَتْ ذَاتَها لِعَيْنِ شُهودِى

(٢)

فناء . . . وبقاء

رأيتُكَ فى ضَحِـكِى وَالبُـكا   نهاراً وَفى الليلِ مُخلَوْلِـكا
رأيتُكَ مثلَ الذى تبتغِى   جِهارًا ، ولـكنْ بآلائِـكا
رأيتُكَ تشرق فى خلقِـكا   فَيَبْتَزُّ رُوحِى سَنا وَجْهِـكا
رأيتُكَ تحبو خلايا كِيانِى   عيونا تراكَ وَتَعنُو لَـكا
فأيقنتُ أن الفنا بـ « الأنا »   وأن بقائى فنــائى بكا

شيء عن ألبانيا المسلمة المنكوبة

للسيد وهبي سليمان الألباني

على الشاطىء الشرقي لبحر الأدرياتيك وحول مرتفعات تومور وتازابوش ، وفي حدود يوغوسلافيا الجنوبية وحدود اليونان الغربية تقوم أرض ألبانيا (أو بلاد الأرناءوط) ويعيش الشعب الألباني .

ينتمي الشعب الألباني الحديث إلى آبائه الأقدمين (إليره) ، وهو شعب قديم على ظهر البسيطة يرجع العلم به إلى حوالي سبعة قرون ق. م. أو يزيد ، وهو أقدم شعب حل أرض البلقان وعمرها قبل الهيلين آباء اليونان !

وفي الوقت الذي كان فيه معظم سكان أوربا يعيشون قبائل وشيعا تتقاتل على القوت وتعيش عيش الغاب ، كان للشعب الألباني نظام ملكي عادل ، وحقوق وواجبات متبادلة بين الحكومات وأفراد الأمة ، وكانت له قوة وعظمة (على قلة عدد أفراده) بلغت أحيانا من الجرأة أن تغير على شواطىء بلاد الرومان في عصر تئوتا ، وتعود محملة بالغنائم والأسلاب ! .

* * *

ثم أتى على ذلك الشعب حين من الدهر ضعفت فيه سلطة الحكومة وقامت المصلحة الفردية العصبية القبلية مقام الإخلاص والمساواة ؛ فأصبح من السهل على الرومان محاربته انتقاما وتشفياً ، والاستيلاء على مواقع بلاده العسكرية الهامة ، وقد كان ذلك فسقطت ألبانيا تحت النير الروماني في عهد الملك كترني الذي قبض عليه الرومان وأرسلوه إلى روما كأسير حرب .

ومرت أزمان وأزمان . . ثم أشرقت شمس القرن السابع الميلادي ، وبلاد الإلير تذوق المر من عدوها الرومان ، وتذيقه الأمرين في ثورات دائمة لا تهدأ إلا لتثور ، حتى أدركت روما أن ليس ثمة خير مرجو من هذه البلاد ، وأن ضررها أكثر من نفعها ، فقررت مغادرة ألبانيا . . فخرجت تاركة وراءها (بفعلها) أرضا قاحلة لا زرع فيها ولا ضرع ، بل فيها شر مستطير ، أشقاها طويلا ، من قبائل وإقطاعيات تقاتل بعضها بعضا .

* * *

وفي القرن الخامس عشر كان القدر قد كتب فيه لشعوب البلقان أن تدخل طوراً آخر من الحياة وأن تشهد انقلابا عاماً في حياتها ، في أوضاعها المختلفة ، في حريتها وعقيدتها ، في نظرها إلى الكون وإدراكها قيمة العيش ، كان الله تعالى قد كتب ذلك ووضع مقاليد التنفيذ بين السلطان مراد ومحمود وغيرهما ، فبعد حروب قاسية مريرة دامت أكثر من عشرين سنة سقطت ألبانيا كغيرها من دول البلقان أمام العثمانيين منهوكة القوى مضعضعة . وكان العثمانيون مسلمين في قلوبهم الإيمان ، وفي أيمانهم سيف الله وفوق أيديهم يد الله ، فدخل الألبانيون في دين الله أفواجا !

ومنذ ذلك الوقت الجميل سنة ١٤٨٠ يوم أشرق الإسلام على بلاد تعبد غير الله أو تشرك به غيره ، غمر النور تلك البلاد ، ونشر ألويته ونشر حكمه ؛ فتحققت آية من آيات الله تعالى في أن الإسلام سيظهر على الشرك في كل مكان « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » حتى أصبح الإسلام اليوم يشكل هناك غالبية ٦٨ ٪ من مجموع السكان .

خدمت ألبانيا الدولة العلية بقلبها وإيمانها ، بخيراتها وشبابها ، برجال الفكر والساعد ، فكان منها فى الدولة العلية القواد العظام والولاة الدهاة والكتاب الكبار أمثال كويرلى وسامى فراشرى (صاحب قاموس الأعلام أشهر قاموس فى الجغرافيا والتاريخ فى وقته) ، ووصل الجندى الألبانى أقصى البلاد الإسلامية واجتمع إلى إخوانه المسلمين فى مختلف بقاع الأرض ، وسكنت عظامه فى بلاد لم يعرفها ولم تعرفه إلا بلا آله إلا الله ، كما داس بقدمه محاربا فى سبيل مجد الإسلام أرض الكفر وهو ينشد : وصلنا إلى الفولجا فى سبيل الله وطاعة لأمر السلطان !

* * *

وفى سنة ١٩١٢ تركت الدولة العلية ألبانيا مكرهة مرغمة لا تملك قوة البقاء من نفسها ، ولا يملكها ذلك أهل البلاد ، بعد أن انقادت إلى جمعية الإتحاد والترقى وبنى ترك الخ ، وأرادت أن تكون دولة تركية فقط ، وقد كانت ولكن يا أسفاه بعد أن أضاعت مجداً وهيبة وسلطانا كان لها فى ظل الإسلام .

ومنذ ٢٨ نوفبر سنة ١٩١٢ أصبحت ألبانيا دولة إسلامية مستقلة (بعد أن اغتصب منها فى مؤتمر السفراء ، بلاد قوصوه ليوغوسلافيا وجامريا لليونان) تقوم فى قلب أوربا . ينادى فيها المؤذن خمس مرات فى اليوم الله أكبر الله أكبر . . . حى على الصلاة .

* * *

كان بعض الناس يرى عجباً أن تقوم دولة مسلمة فى قلب أوربا النصرانية ، ترعى شئون حياتها بنفسها وللاسلام فيها أسمى نصيب من العناية والتقدير ، فكانوا يودون لو يطفئون نور الله ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون !

كانت ألبانيا إلى ما قبل سنة ١٩٣٧ دولة أمة محافظة على شعائر دينها ومقومات الروح الإسلامية فيها ، بها المساجد المتعددة (خاصة اشقودرة التى يقوم بها أربعة عشر مسجد بمآذنها الرفيعة السامقة) والمدارس الدينية المختلفة والعلماء الأكابر أمثال الحاج وهبى ديبرا ، الحاج يوسف قلمندى والحاج سليمان غادجى ؛ ولكن . . قاتل الله الجهل فالإلحاد ، ولعن الكفر بالأديان والسياسة الخبيثة وأهلها ، إذ انغمست هى الأخرى فى حمأة الحرب الثانية مكرهة وقد كانت ميدانا من ميادينها من سنة ٩٣٩ — ٩٤٤ ، فربط بعض الخونة مصلحتها بعجلة الدب الأحمر تقودها إلى الموت الروحى والانتحار الوطنى . . . !

. . بين عشية وضحاها انقلبت حكومة البانيا المسلمة إلى حكومة شيوعية (٢٩ نوفبر سنة ٩٤٤) يقوم بشئونها سفاكون للدماء والمكرمات ، فى مجازر (على صفة محاكم) لم يشهد لها العالم مثيلا .

وإنى ذاكر لك أيها الأخ القارىء نموذجا غير مختار على فقدان الإيمان وانعدام الإحساس بالرحمة والإنسانية فى أولئك الناس :

فى معركة من معارك الجهاد سقط أحد الأحرار المسلمين مثقلا بجراحه ، لا يستطيع حراكا . . فقبض عليه وأدخل فى مستشفى حيث ضمدت جراحه وعادت إليه صحته ؛ ثم تعين يوم لمحاكمته أمام محكمة الشعب (!) فحكم عليه بالإعدام دون أن يعطى فرصة للدفاع عن نفسه ، ولكن هل يكتفى أولئك بالإعدام الذى يخلص من الحياة فى زمن قصير ؟ لا ، فلا بد من تعذيبه قبل إعدامه زيادة فى الانتقام والتشفى وليكون عبرة للقريب والبعيد ، . . . أمام محكمة الشعب وعلى مشهد من الناس المحتشدين ، وقف النائب العام يقول :

يا حضرات القضاة ! أيها المحلفون من الشعب ، أمامكم هذا المجرم الذى قتل الاشتراكيين

الأحرار (!) بهذه اليد كان يمسك المسدس والرشاش ليقتلنا فاكسروها ! بهذا اللسان كان يدعو إلى الخيانة والقتال فسلوه ! بهذه العين كان يتعرف مواقعنا ويفضح أمرنا فاسملوها ؟ فكسرت يداه ، وسل لسانه ، وسملت عيناه ، بين الهتاف ومظاهر الشماتة من الأعداء ، ومات المسكين موتات قبل أن تزهق روحه !

أما ما صنعوه فى بيوت الله تعالى وعلماء المسلمين وأهل الغيرة الدينية عامة ، فهى فظائع نخشى أن نذكرها فلا يصدقها الذين لا تزال على أعينهم غشاوة من البلاهة ، أو حسن الظن فى إنسانية أعداء الإسلام .

* * *

ويله ! كأن هذه خيالات وأحلام ! فى ألبانيا ، تلك البلاد الهادئة المؤمنة التى تنظر إلى الحياة نظرة دين وروح ، من شيوخ ذكر الله تعالى على ألسنتهم فى كل آن ، من شباب كان منية الشيوخ وأمل الوطن ، فى تلك البلاد ، أولئك الشيوخ القابلين اليوم ، وذاك الجيل من الشباب . . يكاد نور الإسلام يخبو ووصاياه تترك بل وتحارب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

ألبانيا المسلمة منكوبة اليوم فى إسلامها قبل كل شىء وفوق كل شىء !



ولكن . . للباطل جولة ثم يضمحل ، وللطغيان دولة ثم تدول ، فسيعيد أحرار الألبان الكثيرون باذن الله تعالى بلادهم إلى حياتها الماضية ، وسينشر الدين هناك لواءه عاليا خفاقا وهو يتلو قول الله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً) .

ولتعودن ألبانيا قبساً من نور الإسلام فى آفاق أوربا المظلمة التائهة .

ولتهتزن فى مآذنها غداً أو بعد غد بهتاف الحق « الله أكبر » *

---

* كاتب هذا المقال عالم ألبانى فاضل يقيم فى دمشق ، وهو نفثة جرح غائر من جراح المسلمين يجد ألمه كل مسلم ، وقد أعجبنا فيه الأمل الحى المشبوب الذى يجعلنا نستبشر دائماً خيراً ، ونقرأ فيه وفى أمثاله ملامح عالم جديد . « التحرير »

فى أفق العالم الإسلامى

تونس

* « منذ احتلال بلاد الجزائر سنة ١٨٣٠ بدأت فرنسا توجه أنظارها إلى تونس . وقد بدأ التدخل الأجنبي يتسرب إلى تونس ويتسع شيئاً فشيئاً فى القرن التاسع عشر ؛ ففتحت أبواب البلاد للجاليات الأجنبية ، وشرع الأمراء فى استقدام الفنيين الأجانب وإعطائهم بعض الامتيازات ؛ مما حمل القناصل على التدخل لحماية مصالحهم ، وبهذه الطريقة تمكن هؤلاء القناصل من توطيد علاقاتهم بالبلاط والتأثير عليه ، وخلق المشاكل بينه وبين الدول بسبب المشروعات الإصلاحية التى كان القناصل يوعزون بإدخالها ، لا بقصد الإصلاح وإنما بقصد إحداث الاضطرابات وتقويض أركان الحكم فى البلاد ، ثم حملوا الدولة التونسية على أخذ قروض من أوروبا ، وتمكنوا بدعوى حماية هذه الأموال من التدخل الفعلى فى شئون البلاد ، وهكذا ضيقت هذه الدولة الخناق على تونس ، ووضعت فى عنقها أغلالا عجزت عن التخلص منها فيما بعد .

وقد أدت هذه الحالة إلى فرض ضرائب مرهقة للشعب لأداء الديون التى أثقلت كاهلها ، ونتج عن هذا التصرف قيام ثورة فى البلاد بزعامة على بن غذاهم سنة ١٨٦٤ م .

وأمام الضغط الدولى وحرج الحالة سلمت مصلحة الجمارك للأجانب ، وتكونت لجنة مالية دولية تحت رئاسة الجنرال خير الدين سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٧٠ م) وقد وحدت اللجنة الديون التى بلغت ١٢٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك . وأصبحت هذه اللجنة ميدانا للتنافس بين الدول ، واتخذتها إيطاليا وانجلترا وسيلة لمقاومة فرنسا ، وعملت فرنسا على إحباط أعمال هذه اللجنة حتى تزداد أحوال تونس استياء واضطرابا فتتسلم هى مقاليد الأمور وحدها . واتخذت من المناوشات البسيطة التى كانت تحدث على الحدود بين التونسيين والجزائريين سبباً للتدخل المباشر فى شئون البلاد .

وبالرغم مما تعهد به الباى — محمد الصادق فى ذلك الحين — من دفع الغرامات وضمان الأمن زحفت الجيوش الفرنسية من الجزائر على تونس بدون سابق انذار ، بينما نزلت قوات أخرى من البحر فى ميناء بنزرت ومنطقة طبرقة . وبعد معارك لم تدم طويلا وصلت القوات الفرنسية فى يوم ١٢ مايو سنة ١٨٨١ م . وحوصر الباى فى قصره ، وعرض عليه قائد الجيش الفرنسى معاهدة (باردو) وأجبره على إمضائها ، وهكذا فرضت الحماية وظل احتلال الجيوش الفرنسية لعدة مناطق من البلاد ، وصارت هذه المعاهدة المفروضة هى سند الاستعمار الفرنسى لتونس من يومئذ ، وأصبح الشعب يعيش تحت كابوس من الإرهاب لا نظير له ؛ فالحريات العامة لا وجود لها : فلا صحافة حرة ، ولا حرية اجتماع أو قول أو تنقل ، بل الاستناد إلى القوة وفرض الأحكام العسكرية لإخضاع البلاد ، وتكميم الأفواه » .

***

---

* اقرأ المسلمون (العدد الرابع) من السنة الأولى .

وقد رأينا أن نرجع إلى سماحة السيد الفاضل محي الدين القليبي الزعيم التونسي وضيف مصر الآن لنقف منه على حقيقة الوضع في تونس، وما يراه في قضيتها؟ فتفضل بأن كتب إلينا البيان الآتى :

« لقد كنا نتوقع للقضية التونسية ولمثيلاتها من قضايا الأمم المغلوبة على أمرها في منظمة الأمم مثل هذا الإخفاق لأنها تفحص هذه القضايا على ضوء ما تقوم به الدول الكبيرة من إعداد للحرب المقبلة وتنظم لخططها ومواقعها وما تتطلبه من إمدادات.

فتدعيم أمريكا وانجلترا وأذنابهما للاستعمار الفرنسي، وخنق للاضطهاد والعسف والتقتيل الفرنسي في شمال إفريقيا إنما هو تدعيم للخطوط الأولى للحرب، وتأمين للقواعد التي أقاموها لها هنا وهناك وعمل للقضاء على كل حركة تكون خطراً فيما وراء الواجهة عند قيام العدو بهجوم مفاجىء.

وقد شاهدت تونس حركة من هذا القبيل أو ثورة من الفرنسيين ضد التونسيين مثل التي تقع اليوم في تونس قبل الحرب العظمى الأولى ١٩١٤ : ١٩١٨ — في حوادث « الجلا » — تقتيل وسجن وتشريد، كما شاهدت قبل الحرب العالمية الأخيرة حوادث مماثلة في ٩ أبريل، ونحن الآن أمام الحرب الثالثة فمن الضروري أن تمثل فرنسا نفس المأساة على مسرح تونس ومراكش معا، فتسوق جيوشها وشرطتها وعصابات المدنيين من رعاياها يحملون مختلف الأسلحة يهاجمون بها العزل الآمنين. يهدمون عليهم بيوتهم ويعتدون على شرفهم وأموالهم يقتلون ويأسرون وينشرون الرعب والفزع، بتأييد أمريكا وانجلترا وإعانتهما استعداداً للحرب الآتية وتأميناً لمواقعها وخطوطها الأولية.



إن أمريكا تريد أن تحكم شمال إفريقيا بواسطة فرنسا التي تسيطر على هذه الأقطار وأن تجعل منها الحارس الأمين على القواعد والخطوط الأولية وحتى على الملايين من الأفارقة الذين هم عدة الحرب، ويمكن لفرنسا أن تقدمهم لأمريكا عند الحاجة كما تقدم أي شيء آخر وبهذا الاعتبار لا يمكن لأمريكا أن تقف من قضايا المغرب لدى منظمة الأمم غير الموقف الذي وقفته.

ثم إن فرنسا اليوم كدولة وحكومة لا وجود لها لأنها أصبحت تحت سلطان الشركات وأصحاب رءوس الأموال يتحكمون في مصائرها ويوجهونها، حيث يعتقدون أن مصالحهم تنمو وتستفيد. هذه الشركات تقوم في فرنسا وتحكم فرنسا ولها فروع في شمال إفريقيا تحكم ويحكم القائمون عليها شمال إفريقيا. فأصحاب المزارع الواسعة والمناجم والمصانع والبنوك هم الحاكمون بأمرهم، وهم الذين أشعلوا هذه الثورة دفاعا عما اغتصبوه من ثروة ونفوذ، ونظموا لها عصابات الاغتيال والتخريب وأمدهم شركاؤهم في باريس بالجند والعتاد ليأمنوا مصالحهم ومصالح الشركات الأمريكية الكبيرة التي هم على صلة بها كصلة تاجر القطاعي بتاجر الجملة وليحققوا لجميعهم كسب الحرب بالقضاء على كل حركة وطنية تقوم حيث الخطوط الأمامية للحرب والقواعد والحصون.

فحرب الهند الصينية التي يسميها عقلاء الفرنسيين الحرب القذرة تقوم منذ سنوات على هذا الأساس، واشتركت فيها أمريكا لذلك الغرض وأنفق فيها الشعب الفرنسي أمواله الباهظة وشبابه الغض لحماية مزارع الشاى وغابات الكاوتشوك ومناجم القصدير التي تملكها بعض الشركات الفرنسية. وأقل ما نتج عن معالجة فرنسا لقضية الهند الصينية بالحديد والنار أن سيطرت الشيوعية هناك على الموقف وانفتح ما بين الفيتنام والصينيين من حدود.

فمعالجة قضايا المغرب ومثيلاتها تقع على ضوء هذه الحقائق والمصالح الاقتصادية والعسكرية لهذه الدول. أما منظمة الأمم فهي ملهاة لصغار الأحلام تحول اتجاههم عن الأهداف الحقيقية، وتخدع منهم الأسماع والأبصار.

إن للدول الاستعمارية مصالح حيوية فى بلاد العرب والشرق عامة اقتصادية وثقافية ــ وهى مصدر البلاء ــ واستراتيجية لم يقع فى يوم من الأيام استمالها كسلاح للدفاع عن مصالح العرب والشرقيين ، بل ان أوربا وأمريكا قد أخذت تضغط ضغطا اقتصاديا على إيران ومصر مثلا لترغمهما على قبول أوضاع معينة هى أولا وقبل كل شىء لفائدة تلك الدول الاستعمارية ، ومن المؤلم أن هذا الضغط لم يثر اهتمام بقية بلاد العرب والشرق فتتعاون على إحباطه .

هناك جبهة استعمارية متكتلة مستكملة لوسائل القوة والعمل أضحت تملأ كل ميدان ، ومنها ميدان الصراع السياسى فى المنظمة الأممية ، وهى تريد أن تخضع لها كل شىء وبكل الوسائل فلا مناص للمظلومين من التكتل والاتحاد فى جبهة مقابلة لحماية وجودها أولا وصيانة مصالحها ، تقوم هذه الجبهة بإيجاد التوازن ولإعداد كتلة أخرى نقف فيها مجتمعين لحماية المثل العليا وحماية البشرية من أرزاء الحروب ، وحبذا إذا كانت هى الكتلة الإسلامية التى ينشدها المسلمون جميعاً ، ولنترك هذه المنظمة الأممية التى أصبحنا فيها لا نستفيد ولا نفيد بل أضحينا آلة لتنفيذ ما تمليه الدول الكبرى المسيطرة عليها من الدسائس الاستعمارية فقد آن أن نفارق هذه المنظمة غير آسفين .

أما شعوب المغرب فهى تحترق تحت وسائل القمع الفرنسية القاسية وإن الشعوب التى تعطف عليها لا تملك لها نفعا لأن قواها غير منظمة فهى لا تفيد نفسها فضلا عن أن تفيد غيرها ، وتلك هى الحقيقة التى يجب التصريح بها مهما بلغت من المرارة والإيلام ؛ فنحن الآن فى عصر وحالة يجب أن تواجه فيها الحقائق » .

***

هذا هو موجز وضع فرنسا الظالم من وطننا العزيز تونس ... والمأساة بذلك قديمة مستمرة وما الذى حدث هذا الشهر إلا حلقة بمدحلقات ... ونرجو أن تكون الأخيرة ، ويمكن أن تكون كذلك إذا استمر الكفاح رغم كل تضحية ، وقد تفاءلنا كثيراً بالتجاوب السريع الذى اهتزت به مراكش ولا نظن الجزائر إلا متربصة حتى نستوثق أن هبة مراكش هذه المرة ستستمر ، وأن المعركة قد استوفت أسباب الجد والحيطة ...

والأمانة التى فى أعناق المسلمين فى الأقطار الأخرى نحو قضية شمال إفريقيا كبيرة ... وأولها أن يقاطعوا فرنسا مقاطعة عملية ، ومقاطعة فرنسا عملية سهلة إذا قيست بغيرها ... بل إن البدء بها من (التكتيك) المحكم للنجاح فى غيرها ؛ ونحن لا نفهم أن تحتج الحكومات العربية على سياسة فرنسا وهى ترعى معاهدها ولغتها وثقافتها وتبيع فى أهم شوارعها أحدث أزيائها وأفخر وارداتها ... ولا نفهم أن نقرأ فى صحفنا اليومية بالخط العريض « كذا قتيل وكذا جريح فى تونس » وتحت ذلك فى الصفحات الأولى إعلانات عن شركة (إيرفرانس) و « سوار دى بارى » ...

ترى هل تستطيع مصر فى « عهدها الجديد » أن تضرب مثلا جديداً فى أسلوب الكفاح العملى ؟

فلسطين

علم الناس آخر فصل من المسرحية السياسية لقضية فلسطين ، ولا نظنه الأخير ، فان دور الأبله المضحك الذى يمثله ساستنا العرب فى هذه الرواية لا تنتهى نكاته وفنونه ... وقد أعجبتنا الكلمة التى كتبها كاتب مصرى معروف فى إحدى الصحف المصرية الأسبوعية تحت عنوان « إسرائيل تلطم الأمم المتحدة والأمم المتحدة تلطم الدول العربية » ... وقال فيها « حكومات الدول العربية وساسة وزعماء العرب يتمسكون بهيئة الأمم ... لا لأنهم يحسنون الظن حقا وصدقا بهيئة الأمم ،

أو يؤمنون حقا وصدقا بعدل وإنصاف هيئة الأمم ... كلا وإنما لأن هيئة الأمم هى الستار الذى يخفون وراءه فشلهم فى معالجة قضايا العرب ، وترددهم أو إحجامهم عن العمل المجدى ، العمل الحازم الحاسم ، هذا الإحجام الذى سببه تفرق الكلمة وتغليب المصالح الذاتية على مصلحة المجموع ... وإعلاء كلمة المال والذهب والدولار على نداء الكرامة والحرية والاستقلال ... ثم هيئة الأمم هي بعد هذا وذاك العذر الذى تتقدم به الحكومات العربية إلى شعوبها كلما طالبتها هذه الشعوب بالعمل ... تقول هذه الحكومات لشعوبها العربية ... « وما الحيلة ! لقد ذهبنا إلى هيئة الأمم وشكونا وخطبنا وقمنا بالدعاية هنا وهناك ... واشتركنا فى لجنة كذا وفى لجنة كذا وفى لجنة كيت ، وقدمنا الأدلة على كذا وكذا ... ولكن هيئة الأمم لم تنصفنا ! ... كأنما كانوا ينتظرون حقا وصدقا أن تنصفهم هيئة الأمم وهم الذين سبق لهم أن جربوا إنصاف هيئة الأمم وعرفوا من التجارب السابقة ألا عدل هناك وأن الحق ضائع إن لم يكن له سند من القوة ... قوة السلاح لا قوة الخطب ولا قوة القانون ... » .

هذا حق ، وقد قلناه نحن من قبل ، ولكننا لا نظن أن الذى حدث كان لطمة من إسرائيل للأمم المتحدة ، وإنما هو اتفاق قديم عميت عنه أعين المسلمين بعد أن عميت قلوب ساستهم ... قلنا فى العدد التاسع من (المسلمون) : « لم يمض على معركة فلسطين إلا ثلاث سنين ، أعنى المعركة الهزيلة التى انتهت بمؤامرة الهدنة الأولى ثم الثانية ... وهى — على هزلها — كانت مسرحا تكشفت فيه فضائح مخزية ، وأسفر فيه اليهود عن حقيقتهم الغادرة ذات المخالب والأنياب ، ورأينا رأى العين حقائق المصطلحات الكاذبة « مجلس الأمن » و « الدول الكبرى » و « الضمير العالمى » ، وقرأنا بأحرف بارزة من ضحايا عزيزة وخسائر فادحة وآمال خائبة تفسير قول الله عز وجل «لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض» ، ولم يمض على كل ذلك إلا ثلاث سنين فما بال المسلمين كأنهم قد نسوا كل شيء كان ! وما بالهم لا يزال ساستهم لا يجيدون إلا التسول فى ردهات هيئة الأمم وفى مكاتب السفراء والمفوضين ، وإلا الاحتجاج ... ثم الاحتجاج بشدة ، ثم الاحتجاج شديد اللهجة جداً ، ثم ... لا ثم بعد هذا إلا الميوعة والتغرير وضياع الوقت والكرامة والبقية الباقية من فلسطين ! !

قلنا هذا ولا نزال نقوله ، وستظل الأيام تكشف طوايا هذا الاتفاق القديم حتى يفيق المسلمون ، ويصدقوا بكل دليل مخز مرير قول ربهم « بعضهم أولياء بعض » .

لم يكن الذى يريده المسلمون من الحلفاء بعد الحرب الأخيرة أن يقفوا فى صفهم ضد اليهود ... لا ، وإن كان ذلك فى منطق سياسة العصر حقا طبيعيا ورداً واجباً لجميل العرب الذين وقفوا إلى جانب الحلفاء وكانوا سقالة الميزان فى كفتهم بعد أن دوختهم بطولة المحور ! لم يطلب العرب رغم ذلك من الحلفاء أن يقفوا إلى جانبهم ضد اليهود ... ولم يكونوا بحاجة إلى ذلك فاليهود كما يعلمون هم ليسوا أكثر من العرب عدداً ، ولا شجاعة ، والفارق بين العرب واليهود فى ذلك كبير ... وإنما المشكلة مشكلة « السلاح » ، ولم نكن نريد من (الإنجليز مثلا) إلا أن يقفوا على الحياد ويتركونا نستورد الأسلحة من حيث نشاء ... لا أن يفتحوا البحر لليهود تتدفق عليهم الأسلحة من كل مكان ويحجزوا على العرب بالمعاهدات الظالمة والاحتلال البغيض ... ويستعملوا هذا الحجر الظالم فى إحراج ساسة العرب الضعفاء باسم النصيحة تارة وباسم مصلحة العرب تارة وبالإنذار إذا لزم الأمر ...

لماذا نستغرب إذاً أن يقف الإنجليز موقفهم الأخير من قرار هيئة الأمم بالمفاوضة بين العرب وإسرائيل دون تقيد بقرارات الهيئة السابقة ؟ ما هو الجديد المستغرب فى موقف الإنجليز ... وما معنى الإحتجاج ؟

أخبار متفرقة

● أعلن الرئيس اللواء محمد نجيب إلغاء الدستور المصرى ، وقد صرح فضيلة الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للاخوان المسلمين أنه يرى أن تستفتى الأمة أولا فى دستورها الجديد ؛ وهل هى تختار شرائع الإسلام أم شرائع الغرب ، فإذا رأت الأمة أن تحكم بالإسلام ، كان على اللجنة التى تشكل لصياغة الدستور أن تنفذ ذلك ، وأن تلتزم به ، ولم تعد مطالبتها بالتزام الشريعة استجداء لا يليق بالإسلام ولا بمصر المسلمة ، وإذا رأت الأمة أن تحكم بشرائع الغرب ، وهو رأى لا يمكن أن يقول به مسلم ، عرفنا أنفسنا وعلمنا الأمة أمر ربها وما يجب عليها .

● أعلنت اللجنة الأمريكية لمساعدة اليهود أنه من الضرورى تخصيص مبلغ ٢٥ مليون ونصف مليون دولار لمساعدة اليهود فى أوربا والبلاد الإسلامية وإسرائيل خلال العام القادم ... وهذا المبلغ يزيد بمقدار مليونى دولار عن العام الماضى ، وسيجمع المبلغ من المساعدات الخاصة فى أمريكا .

● اعتقلت السلطات الأسبانية أحد اليهود الأسبان وكان يستعين بالبرامج الموسيقية التى تذاع عن طريق الراديو فى الشرق الأوسط لنقل رسائل إلى المنظمات الشيوعية فى إسرائيل التى تقوم بدورها بنقل هذه الرسائل إلى مصر وباقى الدول العربية .

● يدرس أولو الشأن فى لبنان اقتراحا للأمانة العامة للجامعة العربية تهيب فيه بأن تحد من التعامل الاقتصادى مع قبرص باعتبارها قاعدة للتهريب إلى إسرائيل ريثما تتخذ الجامعة العربية التدابير اللازمة مع حكومة قبرص .

● عقدت إسرائيل اتفاقا جديداً مع إدارة المعونة الفنية التابعة للأمم المتحدة ، وسيذهب إلى إسرائيل ٢٦ خبيراً من خبراء الأمم المتحدة لتقديم المشورة فى صناعات النسيج والبترول والمعادن خلال السنتين القادمتين .

● دعا سماحة السيد آية الله كاشانى فى بيان أذاعه على الشعب الإيرانى — إلى وجوب وقوف الإيرانيين إلى جوار إخوانهم أبناء العراق فى كفاحهم الرهيب ضد الدكتاتورية والاستعمار وقد أحدث هذا البيان قلقاً كبيراً عند حكومة العراق وفى الدوائر البريطانية . وقد بعثت حكومة العراق بمذكرة احتجاج إلى الحكومة الإيرانية على النشاط الذى يبذله الزعيم الدينى آية الله كاشانى رئيس مجلس النواب الإيرانى

● أذاع الحزب الألمانى الجديد « حزب جميع الألمان » فى فرنكفورت نشرة أورد فيها برنامجه السياسى وهو يهدف إلى تكوين ألمانيا متحدة لا تتحالف مع أى من المعسكرين السوفييتى أو الغربى .

● يعيش أهالى جنوب الجزائر فى جو من الأرهاب البوليسى الشنيع الذى تقوم به قوات الجندرمة والحرس المتحرك من الوسائل العنيفة فى استفزاز الأهالى . ولا تتحرج عن القيام بعمليات التفتيش والإعتقالات بدون أى مبرر .

● أقسم ما يزيد على عشرة آلاف محارب فى كينيا « يمين الموت » على مواصلة الجهاد والتضحية حتى يخرج البيض من بلادهم ، ولم يعد هؤلاء يقيمون فى مدنهم وقراهم بل أصبحوا يقيمون فى الجبال للقيام بعمليات حرب العصابات لإقلاق راحة المستعمر الدخيل حتى يخرج من بلادهم .

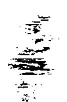
● قالت (الأهرام) إن القوة الحقيقية فى ايران موزعة بين الجناح الوطنى « الرجعى » وبين جماعة « الإصلاحيين » الذين يضمون عناصر من الطبقة المتوسطة تؤيد نوعا من « الماركسية » الاقتصادية دون الميل إلى الاتصال مباشرة بموسكو . . . ونشرت (الأهرام) كذلك خبراً عن « الحركة الرجعية » فى تركيا ... ترى ما الذى تعنيه الصحيفة بالرجعية ؟!

● بلغت الرسوم المستحقة لمصلحة الجمارك المصرية عن خدمات أدتها للقوات البريطانية فى سنوات الحرب العالمية الأخيرة وعلى البضائع التى وصلت إلى القوات البريطانية فى القناة منذ ٨ أكتوبر سنة ١٩٥١ حتى الآن نحو ٦٠ مليونا من الجنيهات . .

● خصص العهد الجديد قطاراً باسم اللاجئين الفلسطينيين يمر بجميع الخطوط ويقف فى جميع المحطات بالمدن والقرى لجمع ما يقدم إلى المسئولين من إعانات ومساعدات لإخوانهم أبناء فلسطين فى محنتهم القاسية كما خصص قطار آخر لجمع مواد البناء على اختلاف أنواعها ليقوم اللاجئون ببناء بيوتهم بأنفسهم .

● نتيجة لفظائع الإنكليز فى كينيا بدأ بعض أهاليها يرتدون عن الاعتقاد فى طب الرجل الأبيض ولجأوا إلى العلاج بطريقتهم الخاصة القديمة حيث يعالج الطبيب مرضاه بلمس الأيدى وقراءة الأدعية وغيرها من الطقوس . .

● ابتدأ سيل الحجاج المسيحيين يفد على كاتدرائية جوا القديمة لتقبيل قدمى القديس فرانسيس أكسافيه الذى حنط جثمانه منذ أربعمائة عام وقد أخرج الجثمان من تابوته للمرة الأخيرة وعرض فى نعش من الزجاج والفضة ووقف (الحجاج) الذين جاءوا لتقبيل قدميه فى صف بلغ طوله ربع الميل ومن المتوقع أن يبلغ عدد هؤلاء الوافدين من مختلف أنحاء العالم لهذا الغرض حوالى المليون .



● غادر بغداد بالقطار إلى تركيا جماعة من ١٣٥ من مسلمى القوزاق البدو وفدوا من التركستان الصينية وقد كانوا يتجولون مدة أعوام منذ أن شردتهم الثورة الشيوعية فى الصين .

● قررت اللجنة الإدارية للأمم المتحدة اعتبار اللغة الأسبانية لغة رابعة رسمية فى المجلس الاقتصادى والاجتماعى . وتخصيص (٣٥٠) ألف دولار لهذا الغرض فى ميزانية ١٩٥٣ .

● اعتقلت السلطات الفرنسية فى مراكش جميع زعماء الحزب الوطنى المراكشى وعدد كبير من أعضائه ولا تزال الاعتداءات متوالية من القوات الفرنسية الدخيلة على الشعب المراكشى الأعزل

● دعا المؤتمر الإسلامى العالمى إلى مقاطعة البضائع الفرنسية احتجاجا على أعمال الإرهاب والقمع التى تقوم بها السلطات الفرنسية فى شمال أفريقيا وقال إنه سيسعى لدى الدول الإسلامية لتنفيذ هذه المقاطعة عملياً .

● عقد مجلس النواب الأردنى جلسه اتخذ فيها قراراً باستنكار موقف مندوب بريطانيا فى الأمم المتحدة من قضية فلسطين واللاجئين العرب وأرسل برقية احتجاج إلى الحكومة البريطانية باسم جميع النواب الأردنيين على ذلك الموقف الذى ينطوى على الاستهتار بالعدالة وحقوق الإنسان .

● لايزال سماحة الأستاذ الشيخ محمد البشير الإبراهيمى رئيس جماعة العلماء بالجزائر يوالى نشاطه الميمون فى شرح حقائق الإسلام وقضايا المسلمين وهو موضع الحفاوة والتكريم من سائر الهيئات الإسلامية فى مصر .

● وصل إلى القاهرة سماحة الأستاذ السيد محى الدين القليبى الزعيم التونسى بعد أن قام بجولة مباركة فى الأقطار العربية اتصل خلالها بالهيئات والأحزاب وألقى محاضرات عامرة فى شئون المسلمين وقضية تونس ، جزاه الله خيراً ، وأهلا به وسهلا . .

● لبى رئيس تحرير « المسلمون » دعوة كليات جامعات القاهرة وابراهيم والإسكندرية للتحدث فى أحفال ذكرى المولد النبوى ، وقد كانت كلها جميلة حافلة ومظهراً رائعا للروح الإسلامية الفتية فى الشباب الجامعى .

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات هذا العدد

صفحة

مطابع دار الكتاب العربى - شارع فاروق بمصر